جائزة خليفة التربوية
Khalifa Award for Education

حدائق في السحاب

بقلم
منال الغداني الشحي

رقم
18

جائزة خليفة التربوية
Khalifa Award for Education

حدائق في السحاب

بقلم

منال الغداني الشحي

فاز هذا العمل في مجال التأليف التربوي للطفل
في الدورة الثامنة لجائزة خليفة التربوية
2015 - 2014

جائزة خليفة التربوية
Khalifa Award for Education

مطبوعات جائزة خليفة التربوية

الكتاب رقم (18)

موافقة المجلس الوطني للإعلام رقم: 49608
رقم التصنيف الدولي: ISBN978 – 9948 – 18 – 495 – 9

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل كان، بما في ذلك نسخ الصور أو استخدام الوسائل الإلكترونية، دون موافقة كتابية من أصحاب حقوق الطبع والنشر، وكل من يتصرف بما يخالف ذلك، سيكون عرضة للمساءلة القانونية، والمطالبة بالأضرار الناجمة عن ذلك.

جميع الحقوق محفوظة للامانة العامة لجائزة خليفة التربوية.

مدينة أبوظبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097124459442
فاكس: 0097124454995
ص ب: 33088
الموقع الإلكتروني: www.khaward.com

كلمـة

إسهاماً من الأمانة العامة لجائزة خليفة التربوية في تفعيل الميدان التربوي، وتعميق نشر الوعي التربوي في نفوس العاملين فيه، ونشر المعارف التربوية الصحيحة في مجتمع دولة الإمارات، بما يؤدي إلى نهضة تعليمية واعدة، تقوم الأمانة العامة في كل دورة بنشر أبحاث الفائزين في مجالات الأبحاث التربوية العامة، والأبحاث التربوية الإجرائية، والتأليف التربوي للطفل، بشقيه الإبداعي والوصفي، على مستوى الدولة والوطن العربي، لتكون مادة تربوية رصينة، تضعها بين أيدي التربويين، والمهتمين بالتربية، آملين ان تكون لبنة في صرح الجهود التربوية المتواصلة في الدولة، لبناء دولة العلم والمعرفة، في سبيل الوصول إلى مكانة مميزة بين الأمم المتحضرة في عالم اليوم.

أمين عام جائزة خليفة التربوية

أمل عبدالقادر العفيفي

1

الأرض أيضا تموت !

غريب أن نخرج لتفقد المزرعة ، و لا نسمعُ صوت زقزقة العصافير وطنين الدبابير، كان الجو هادئا على غير عادته حيث توغلنا بعيدا في الجزء الغربي منها ، هناك وقف والدي وهو يفكر بعمق ، إنه يفعل ذلك عندما يُقْدم على اتخاذ قرارٍ مصيري ، قرار قد يغير مستقبلا كاملا ، وأقصد كاملا ، أنه سوف يطال الجميع .

قال والدي بصوت محتقن :

- أطفىء المحرك ، سنتوقف عن ري هذا القطاع .

قلتُ مذهولا :

- لكن الأشجار ستموت !

رد والدي وهو يفرك جبينه بشدة :

- علينا أن نضحي بهذا الجزء ، لنتمكن من الحفاظ على الجزء الأخير المتبقي لدينا، لا يمكننا أن نخسر كل شيء .

- ، لقد عملنا سنوات على زراعة هذا الجزء ، و تكبدنا مبالغ طائلة في علاج التربة والأسمدة و... ، والآن سنتخلى عنها هكذا ، بكل بساطة .

استدار والدي عائدا بينما كان يغرس وجهه في صدره بألم :

- أنت تفهم ما أعنيه ، أنا أيضا لا أرغب في ذلك ، لكنه الحل الوحيد .

كانت والدتي تقف على الشرفة ، تنتظرعودتنا بفارغ الصبر ، وما أن لمحتنا من بعيد، حتى هرولت نحونا وهي تسأل بخوف شديد :

- هل الأمور على مايرام ؟

كان رد والدي الصمت ، إنها تعرف ما يعنيه الصمت ، لكنها لم تيأس ، قالت ثانية موجهة الخطاب لي هذه المرة :

- مروان ، كيف كان المحصول اليوم ، هل سنتمكن من بيع كمية وافرة هذا العام .

نظرتُ في عينيها متأملا رجاءها ثم قلت :

– لقد أوقفنا المضخات ، لايوجد ماء في تلك المنطقة ، لقد جفّ المخزون تماما .

صعقت والدتي وتمايلت بهدوء نحو الأرض ، نظر إليها والدي ثم هرع لإسنادها ، فقال :

– لايزال لدينا الهكتار الأخير ، ربما سنتمكن من جمع مبلغ مناسب من المال لسداد الديون المتراكمة علينا .

قالت بصوت مرتجف :

– إنه الإنذار الأخير ، هل تعرف ما قد يعنيه ذلك .

لقد هيأنا والدي مسبقا عندما شرح لنا الوضع الذي يمر به ، لكن والدتي عاجزة عن التأقلم مع تلك الفكرة ، لا يمكنها أنْ تتخيل سماع صوت ضجيج السيارات واستنشاق روائح الدخان كل يوم بدلا من زقزقة العصافير و رائحة الزهور ، كما أنها تخشى أن تتطور حالة الربو التي تعاني منها أختي الصغرى ، بانتقالنا المفاجئ إلى تلك المدن المكتظة ..

2

القرارُ الأخير

راقب والدي مزرعته تجفّ وتتلاشى قطعةً قطعةً ، ومع وصول ثلاثة من مندوبي البنك المركزي ، كان لابدّ أنْ يتخذ القرارَ الأخير ..

أمسك والدي القلمَ ،وظلّ جامدا يحدق في الأوراق أمامه ، قال أحد الرجال الثلاثة بحماس :

- لقد اتخذت القرار المناسب ، لم يكن هناك حل آخر

ردّ عليه الآخر وقد بدا واثقا :

- الزراعة ، عمل مرهق لايدر الكثير من المال ، ستكتشف أن الحياة في المدينة أكثر راحة ورفاهية .

رفع والدي رأسه وقد آلمه ما تناهى إلى سمعه قبل قليل ، بينما كان صوت بكاء والدتي يُسمع من وراء الجدران وسعال أختي يزداد حدة .

لم يفكر في عمله كمهندس زراعي هكذا أبدا ، كان يحب أرضه ويحب ما يقوم به ، كانت كل سعادته تكمن في رؤية أشجاره تنمو ، وأزهاره تتفتح ، وثماره تونعُ ، أما العيش في المدينة فلم يكن أحدَ خياراته في الحياة أبدا .

وضع والدي القلم بعنف على المنضدة ، بينما توقف الرجال عن أحاديثهم الجانبية التي كانوا يديرونها ، ثم نهض فجأة وقال :

- لايزال هناك وقت ، سأنتظر موعد السداد الأخير ، يمكن لـ 365 يوما أن تصنع فرقا..

قال أحدهم باستياء :

- لكن المشتري مستعد لدفع المبلغ الذي تريده ، إنه يرغب في شراء الأرض بأي ثمن ..

قال والدي بشيء من الكبرياء :

- وأنا لست مستعدا لبيعها بأي ثمن ، لا يزال لدي الوقت للبحث عن حل ما ، أنا واثق أنني سأتمكن من ذلك .

قال الأخير الذي لم يتمكن من البقاء صامتا :

- أنت تضيّع فرصة ثمينة من يديك ، ربما لن تحصل على هذا المبلغ ثانية .

قال والدي وهو يستجمع طاقته محاولا تمالك أعصابه :

- عفوا ، لكن يمكنكم المغادرة ..

قال أحدهم منددا :

- سوف تندم من قرار مماثل ، أنت لاتفكر بعقلك ، لامكان للعواطف في أمر مماثل مزرعتك تنهار ، ونحن خيارك الوحيد ، سوف ..

دخلتْ والدتي بعينيها الحمراوين من أثر البكاء وهي تحمل أختي التي كانت تسعل بشدة ثم قالت :

- لقد سمعتم ما قاله ، يمكنكم الرحيل .. لن نبيع أرضنا وسوف نجد حلا ..

ردّ رئيسهم ساخرا :

- أنتم تتوهمون ، لا يمكنكم فعل شيء ، لقد غادر جميع جيرانكم لأنهم عجزوا عن حل المشكلة ، لا يمكنكم تعويض الماء الناقص .

نهض الرجال غاضبين بعد أن ضاعتْ الصفقة التي كانوا ينتظرونها ، فقال أحدهم قبل أن يغادر خائبا :

- ستجد نفسك في السجن مع ديون بهذه الضخامة .

كان والدي مدينا للبنك بمبلغ كبير من المال بسبب الآلات والمعدات الكثيرة التي احتاجها لرزاعة أرضه الكبيرة بالطرق الحديثة ، وقد بقيت المزرعة مزدهرة لفترة طويلة قبل أن يطرأ عليها الجفاف الذي تسبب في قلة منسوب الماء الذي يغذي الأرض . لكنني كنت خائفا من عدم قدرة والدي على سداد الدّين في الوقت المحدد ، عندها سيخسر أرضه إلى الأبد ..

3

الاستعداد

لم يبع والدي الأرض ، لكننا رغم ذلك ، لم نتمكن من البقاء أيضا ، قال والدي :

– هل صعد الجميع ..

تلفتتْ والدتي وهي تتفقدُ كل شيء ثم قالتْ وقد تحرك والدي :

– توقف !

– ماذا الآن ..

– مروان ، لقد كان هنا قبل قليل ، إنه ليس في المقصورة .

نزلت أمي من السيارة على عجل ، ثم أخذت تبحث عني بجنون وهي تصرخ :

– مروان ، مروان

كانت تخشى أن يكون والدي قد دهسني دون أن يدرك ذلك ، لقد كنت أقف قربها قبل قليل ، لكن الآن ، لست في أي مكان حولهما .

نزل والدي من السيارة وحمل مفتاحه الحديدي الصدئ وفتح باب المنزل ، ثم اندفع إلى الداخل يتفقد الغرف والممرات والأقبية .. لكنه لم يعثر علي ، كنت حينها أركض مبتعدا ، لكنهم لايعرفون بعد أنني قررتُ ألاّ أرحل معهم ، لن أذهب إلى المدينة ، لن أترك حيواناتي هنا لوحدها ، كلبي (أرقط) ، ونعجتي (كادي) سوف أبقى معهما ، ولن أتخلى عنهما أبدا ، سيموتان حتما إن بقيا هنا لوحدهما .

حلّ الليل لكنهم لم يعثروا علي ، كنت مختبئا جيدا لأنني أعرف هذه المزرعة أكثر من أي شخص آخر ، ومع يأسهما كان لزاما عليهما استدعاء رجال الشرطة الذين بحثوا في كل مكان دون جدوى .. حتى قرروا الاستعانة بالكلاب البوليسية المدربة ، عندها فقط أدركتُ أنّ على التحرك من مخبئي والتوجه بعيدا ، فتلك الكلاب ستجدني عاجلا أم آجلا ..

حملتُ نعجتي ، وطلبتُ من أرقط ان يتبعني بهدوء ، إننا نرفض الرحيل ، لأننا نرغب في البقاء معا .

سرتُ طوال الليل متجها إلى الوادي حيث ترتفع الجبال وتزداد الأرض وعورة ، عندها شعرت بالتعب والعطش بينما أصوات الكلاب لاتزال تتبعني قلتُ لأرقط :

- إنهم خلفنا ، سيعثرون علينا ، ولن نرى بعضنا بعد ذلك .

ألصق أرقط جسده بي بقوة ، ثم أصدر ذلك الأنين ، إنه يعرف ما أعنيه ، ويعرف أننا قد لانرى بعضنا ثانية ، الكلاب تشعر بذلك بفطرتها ، لكن نعجتي (كادي) لاتفهم ما نمر به ، إنها تريد أن تأكل لذلك بدأت بالثغاء ، إلا أنني لم أجد ما أقدمه لها ، المكان هنا قاحل وموحش ، لكن ثغاءها كان كفيلا بجذب الباحثين صوبنا ..

تركت نعجتي لأنني لم أكن قادرا على حملها وأنا أشعر بعطش شديد وتعب ، ثم ركضت مبتعدا مع اقتراب الأصوات والأضواء أكثر فأكثر ، عندها انزلقت قدمي ، وسقطتُ أسفل جرفٍ عميق ثم علقت أنا و(أرقط) على حافة هاوية كانت السبب في عدم سقوطنا أسفل الوادي ، لكنني كنت حينها مصابا بشدة وأعجز عن الوقوف ، بينما الأصوات تبتعد والأضواء تتفرق ، قلتُ بجهد بالغ :

- لقد نجحت إنهم يفقدون أثرنا ، سنبقى معا أرقط ..

لحظات انقضت قبل أن يسود الهدوء ، ثم ظهر ذلك الصوت .!! كان أرقط ينبح بشدة ، ويرى في الظلام ما لايمكنني أنْ أراه ، ثم دخل في عراك شديد مع أفعى مجلجلة ظهرت من بين الصخور ..

عادت الأضواء ثانية وعاد صوت والدي ينادي عليّ ، لقد عثروا علينا بسبب نباح أرقط المستمر ، فتدلى والدي بحبل ليخرجني من الوادي الذي سقطتُ فيه ، زحفتُ نحو أرقط الذي كان قد فارق الحياة وبجواره ثعبان ممزق إلى أشلاء ، عندها تمسكتُ به بشدة ورفضتُ الرحيل :

- مروان ، بني ، أنتَ بخير .. قلقنا عليك بشدة .. لماذا فعلتَ ذلك ؟

ثم نظر إلى أرقط وقال بأسى :

- لقد كان كلبا وفيا ، لكن علينا الرحيل الآن ..

- لا ، لن أترك أصدقائي ومنزلي ، لا أريد الذهاب إلى المدينة .

حاول والدي أن يحملني بين يديه لكنني كنت أرفض بشدة وأدفع يده بعيدا ، عندها أخرج

من جيبه صندوقا خشبيا وقال لي :

- انظر ، إلى هذا المفتاح ، إنه مفتاح منزلنا .

قلتُ وأنا أمسح دموعي التي كانت تتساقط بغزارة :

- لقد ظننتُ أنك ستتركه في المنزل ، كما تركتَ كل شيء .

رد بصوت أبوي عذب :

- لا أحد يترك مفتاح منزله ، خذ .. إنه لك ، إنه معنا ليذكرنا أننا سنعود إلى أرضنا ، لكننا الآن لانستطيع البقاء ، علينا أنْ نغادر مؤقتا ، لنتمكن من العودة .

- لكن أرقط مات

- مات وهو يدافع عما يحب ، وكذلك سنفعل نحن .

غرستُ رأسي عميقا في صدر أبي وأنا أبكي بحرقة ، فحملني بين يديه وارتفعنا في الهواء بينما أرقط يرقد في مثواه الأخير ، ونضاله البطولي يذكرني بضرورة النضال للعودة إلى الأرض التي أحب .

4

عالم مختلف

الحياة في المدينة ليست على غرار الحياة في الريف ، إنك في الريف بالسلام يغمرك من كل اتجاه تمشي فيه ، أما في المدينة فعليك ان تكون حذرا في كل لحظة ، وإلا صدمتك سيارة يقودها سائقها على عجل .

وأكثر ما سوف يشعر به سكان الريف القادمين إلى المدينة ، تلك الرائحة الكريهة للدخان المتصاعد من عوادم السيارات ، ربما لن تتمكن من رؤيته ، لكنك حتما ستشعر بطعمه المعدني في فمك ، ومهما حاولتَ أنْ تتخلص من ذلك الطعم فإنك عبثا تحاول ، فالماء لن يزيده إلا مرارة .

وعلى خلاف كل التوقعات التي كانت والدتي تتخوف منها فقد وجد والدي أنّ السكن في الطوابق الأخيرة سيوفر مكانا منعزلا عن الضوضاء التي تصدرها أبواق السيارات والأبخرة التي تتصاعد من عوادمها ، ولم تبد الفكرة سيئة في بداية الأمر ، لكننا اكتشفنا أن الدخان يحيط بالمدينة ويلفها لفا ولا مفرّ من التعرض له ، كما أن الدوار الذي كان يصيب والدتي من حين إلى آخر بسبب الضغط المرتفع في الطابق الأخير زاد الأمر تعقيدا ، بالإضافة إلى الأثاث الضخم الذي وجدتْ والدتي نفسها مرغمة على التخلي عنه لأنه لم يعد يلائم مساحة تلك الشقق الضيقة .

أما أختي فقد حاول والدي أن يوفر لها جهاز تنقية للهواء داخل غرفتها التي كانت نادرا ما تغادرها ، لكن ذلك لم يكن كافيا ، كنت أسمع سعالها يزداد حدة في المساء كلما رفضت وضع قناع الربو الخاص بها حتى مع الأدوية التي كانت تستنشقها ، كانت نوبات السعال الشديد تنتابها من حين لآخر ، حتى بدا لي أن ضلوع صدرها بدأت تتقوس وتبرز تحت ملابسها الرقيقة ، عندها كانت تعاودنا تلك الأفكار السوداء ثانية ، هل سنخسر شخصا آخر في العائلة ! ، ولكم سيطول بقاؤنا ؟ هنا ، تنتهي كل الإجابات ، فلم يعد أحد يتكلم عن العودة إلى الريف .

لقد اندمجتُ في الحياة الجديدة ، والمدرسة الكبيرة التي التحقت بها ، هناك مئات الفصول الدراسية وآلاف الطلاب الذي يحضرون من كل أنحاء المدينة ، ولو أردتَ أنْ تشعر بالفرق ، لأخبرتك أن مدرستي كانت عبارة عن صفين دراسيين فقط ويمكننا ارتداء ما نشاء ، لكن المدارس الحديثة مختلفة ولها أنظمة وقوانين صارمة ، حصلتُ في اليوم الأول فيها على ورقة صفراء ، وتعني أنني متأخر عن بداية اليوم الدراسي وتترتب على

ذلك عقوبات تصل إلى حد تنظيف الساحة أو العمل في المكتبة ساعات إضافية أو حتى تنظيف النوافذ ، لذلك لم يكن يتأخر أحد إلا نادرا ، فالنظام هو النظام .

التفتُ أثناء دخولي إلى المدرسة على ضحكاتٍ مكبوتة خلفي فتجاهلتها ، لكنني شعرت أنني المعني بتلك الضحكات .. قال أحدهم :

- (باسل) ، هناك حديقة تسير على قدمين ، هل تصدق ذلك ؟!

ثم ضحكوا ثانية ، فقال آخر :

- أنا أصدق ، لقد رأيتها تمر بقربي قبل قليل .

كنت أعلم أنني أحمل حقيبة من طراز قديم ، كتلك التي تباع في سوق ريفي وتملؤها نقوش الأشجار والأوراق الخضراء ، على خلاف حقائبهم الفاخرة التي تحمل أرقى العلامات التجارية ، لكن ذلك لم يعنِ لي شيئا ، إنها هدية قدمها لي والدي بعد عودته من ماليزيا ، إنّ لها قيمة خاصة لدي ، وهذا ما جعلني أعتز بها واستخدمها لحمل كتبي .

أخذ الصبية يتدافعون ويتغامزون عندما وقع بصري عليهم لكن نظرتي تلك لم تزدهم إلا قوة ، وبدا أنهم يستمتعون بالسخرية من الآخرين ، قالتْ إحدى الطالبات التي كانت تقف قريبا منا لتخفف عني :

- لا عليك ، إنهم مجموعة من الفاشلين .

ابتسمتُ مرغما ثم غادرت متوجها إلى الفصل فوجدتُ المعلمة تنتظرني ثم قالت :

- مرحبا مروان ، كنا ننتظر وصولك ، يمكنك الجلوس في المقعد الثالث هناك .

جلستُ حيث طلبتْ مني المعلمة ثم دخل طالب آخر لم أتوقع لقاءه .. قالت المعلمة بحماس :

- أهلا باسل ، لقد حصلت على زميل جديد ، رحب بمروان ، سيكون في فريق العلوم معك .

نظر باسل إليّ بحدّة ثم قطب جبينه وجرّ خطواته نحو مقعده ، ثم قال لي بعد أن انشغلت المعلمة بالكتابة على السبورة :

- جلوسك بقربي لا يعني أنّ باستطاعتك التحدث معي ، نحن لسنا زملاء ، ولن نصبح كذلك أبدا .

تحجرتْ الدموع في عيني ، ثم تظاهرتُ بالانشغال بترتيب كتبي ، شعرتُ لبرهة أنني أكره حقيبة أوراق الشجر التي أهداها لي والدي ، لن أرتديها ثانية ، لقد أصبحتُ مصدر سخرية الآخرين بسببها .

عدتُ إلى المنزل مستاء ، فأفرغتُ الحقيبة من محتوياتها وقذفت بها في خزانتي ، ثم استعرتُ حقيبة والدتي السوداء وملأتها بالكتب .

هدأتُ بعدها فأخذتُ أتأمل في كل الأحداث السابقة ، فعرفت حينها ، أنهم انتصروا عليّ عندما أجبروني على أن أتصرف خلاف ما أريد ، فتحت الخزانة وأخرجتُ حقيبة أوراق الشجر ، ثم قذفت بها ثانية ، كم أنا ضعيف لأعجز عن ارتداء ما يعجبني ، هل يهمني حقا رأي هؤلاء ؟ إنني بالكاد أعرفهم ؟ ورأيهم لن يشكل فارقا في حياتي ، فأنا لا أرغب في أن أصبح صديقا لهم بسبب حقيبة تتماشى مع ذوقهم ، عليّ أن أكون على طبيعتي ، وقناعتي بما أنا عليه هو ما سيمكنني من التغلب عليهم .

توجهت ثانية إلى الخزانة ، وأخرجت حقيبة أوراق الشجر ، ثم أعدتُ كتبي داخلها ، وقلت في نفسي بكل ثقة : (أنا مروان ، وهذه حقيبتي الخضراء ، هل لدى أحدكم أيُّ اعتراض ؟!)

نهضتُ وارتديتُ الحقيبة ثم وقفت أمام المرآة وقلتُ بكل ثقة :

- جيد ، لأنني لا أهتم لرأيكم .

5

التوازن البيئي

لم أترك كل شيء في الريف ، فقد جلبتُ معي نبتتي التي زرعتها في الصف الأول ، إنه تقليد متبع في كل عام ، حيث يزرع الطلاب نبتتهم الأولى ويستمرون في العناية بها حتى تكبر ، لتنشأ بيننا علاقة حب متبادلة تدفعنا للارتباط بالأرض ، إنها معي منذ ست سنوات ، لكنها الآن تذبل وتموت ، هرعت إلى والدي وأنا أحملها بين يدي :

- أبي إنّ شجرتي تموت ، أنظر إلى أوراقها الصفراء ، إنها مريضة ، ماذا عساي أن أفعل لها ؟!

قال والدي بحرص :

- هل اعتنيت بها جيدا ؟

- أنت تعرف أنني أفعل ذلك دائما ، لكنها رغم ذلك .. آآه

مسح والدي سطح الورقة فوجده مليئا بالغبار اللزج الأسود ، ثم سمع صوت أختي وهي تسعل بشدة ، لابد أن هناك طبقة مماثلة تتراكم على رئة أختي لتسعل بهذا الشكل الحاد ، قال والدي متنهدا :

- إنها تختنق ، انظر إلى هذه الطبقة السميكة السوداء التي تلتصق بأوراقها .. إنها تحبس عنها الهواء .

فكرتُ برهة ثمّ قلتُ باستياء :

- إذا كان الجو الملوث في المدينة يقتل الأشجار ، فلا بد أنّه يؤثر على البشر أيضا .

قالت والدتي وهي تتنهد بحرقة :

- إنّ أختك تعاني مثل هذه الشجرة تماما ، كلاهما يعجز عن تنفس الهواء النقي ، ربما لو كنا في الريف الآن .

قلت متذمرا :

- حتى لو عدنا إلى الريف ، فإن المدن ستزحف إلينا وتتوسع باستمرار ، الهرب لا يشكل

حلا مناسبا ، علينا أن نعثر على حل آخر .

سمع والدي نقاشي الحاد مع والدتي فقال بتأنٍ :

- أغلب الحلول تأتي من المشكلات ، وقد نحاول أن نحل مشكلة ما ، لكننا من غير قصد قد نتسبب في مشكلة أخرى .

قلت متسائلا :

- لم أفهم حقيقة ما تعنيه ، كيف يمكن لحل أن يسبب مشكلة ؟ إذا هو ليس حلا ..

ابتسم والدي ثم قال :

- في عام 1935 غزت الخنافس حقول القصب في استراليا وقضت على أجزاء كبيرة منها ، فبدأ العلماء بالبحث عن حل ، ففكر أحدهم بجلب أحد أنواع الضفادع الذي يتغذى على هذا النوع من الخنافس من بيئته في أفريقيا ومحاولة تربيته في أستراليا ، وبذلك سيتمكنون من القضاء على الخنافس بطريقة آمنة وستعود حقول القصب إلى سابق عهدها ، لكن هذه الضفادع تكاثرت بأعداد هائلة ودون سيطرة ، لأنّ عدوها الطبيعي الذي يتغذى عليها في بيئتها مفقود ، ومع كثرة عددها ، لم تعد الخنافس تشبعها فبدأت بتناول كل أنواع الحشرات حولها ، بالإضافة إلى بيض الطيور وطعام الحيوانات الأليفة ، وانتشرت في مساحات واسعة خارج حقول القصب التي جُلبتْ من أجلها ، والكارثة الأكبر كانت بالعثور على العديد من التماسيح والثعابين الميتة بسبب تناول هذه الضفادع التي تبين لاحقا أنها تفرز مادة سامة على جلدها اللزج فتتسبب في موت التماسيح والثعابين وحتى طيور البوم التي اعتادت على تناول الضفادع .

قلتُ متسائلا :

- لكن التماسيح تلتهم البشر ، أليس من الحكمة التخلص منها ؟

مسح والدي على شعري ثم قال :

- هذا ما يظنه الكثيرون ، فاختفاء التماسيح تسبب بموت الأسماك في البحيرات والأنهار عندما تم قتلها بوحشية بأعداد هائلة ، لأنّ التماسيح كانت تقوم بدور المنظف للبيئة حيث تقوم بالتهام الجيف والجثث التي تسقط في الماء فتمنع تكاثر البكتيريا والميكروبات وبالتالي يبقى الماء نظيفا للجميع وتنمو الأسماك دون أنْ تصاب بأمراض تتسبب في نفوقها ، كما أنّ اعتداءات التماسيح على الناس لا تزيد عن 10 أشخاص في العام ،

بالمقارنة مع نفاد ملايين الأسماك من النهر وبالتالي نقص الغذاء وموت الآلاف ممن يسكنون قريبا من تلك البحيرات والأنهار ، إنه نظام متوازن ، وسلسلة متصلة يتسبب فقدان أحد حلقاتها بظهور تداعيات بيئية خطيرة قد تهلك الحياة والبشر .

كانتْ تلك المعلومة غريبة بالنسبة إليّ فلطالما تساءلت عن جدوى وجود كائنات مفترسة بيننا ، قلتُ لوالدي :

- حسن ، الثعابين تحمل سما قاتلا ، إن لم نقتلها فستقتلنا !

اقترب مني والدي ثانية وهو يمسح على شعري بلطف ، و قال :

- إنها تلدغ الكائنات لتحصل على الطعام وتدافع عن نفسها ، أما سُمّها فهو مصدرٌ هام لتصنيع المضادات الحيوية التي تعالج الأمراض المستعصية ، كما أنّ الثعابين تقضي على الفئران التي إن تركتْ بلا سيطرة ستتكاثر بأعداد هائلة وستقضي على حقول القمح والحبوب وغيرها وتنشر العديد من الأمراض .

أمسك والدي بيدي ثم قال :

- إنّ كل ما حصل لنبتتك يعد مثالا حقيقيا لاختلال التوازن البيئي ، اليوم تدفع استراليا ملايين الدولارات للتخلص من تلك الضفادع ، وهذه المدينة ستدفع ملايين الدراهم في علاج الأمراض الناشئة من تلوث الهواء إذا لم نفعل شيئا ، كما أنّ مشكلة الأمطار الحمضية التي تنشأ من تلوث مياه الأمطار بالدخان تسبب تآكل المباني والحديد ويتم صرف مبالغ طائلة لصيانتها وإصلاحها ، هناك ثمن لابد أن ندفعه لتسببنا في اختلال هذا التوازن يا بني .

قلتُ بحماس :

- إذاً ، الحل الأمثل يكمن في استغلال مكونات البيئة لحماية نفسها ، وأفضل مكون للتخلص من تلوث الهواء هو النبات القادر على تنقية الهواء ، وإطلاق غاز الأكسجين .

تبادل والديّ نظرة عميقة تبعها صمت طويل بدا معه أنهما يخفيا أمرا ..

ربما لم ترق الفكرة لهما ، فالمدينة التي نعيش فيها تكاد تخلو من الرمل الصالح للزراعة ، مع اكتساح أطنان من الاسمنت الشوارع والأبنية ، إنّ الرمل منتج يباع في المحلات للراغبين في الزراعة في أحواض صغيرة ، فالأماكن الفارغة عادة يتم تخصيصها لإيقاف السيارات ورصف الممرات للمشاة ، وتوسيع الشوارع التي تسمح بمرور أكبر عدد من

السيارات ، لذا قد لا ترى من النباتات سوى بعض الشتلات الصغيرة الذابلة على شرفات الشقق العالية . نهض والدي بشكل مفاجيء دون أن يقول شيئا ، ترى ما الذي أزعجه الآن ؟!

6

حدائق بابل

دخلتُ المدرسة وأنا أحمل حقيبة أوراق الشجر ، ومشيتُ في الممر الذي يقف فيه هؤلاء الصبية ثم سمعتُ تعليقاتهم العقيمة ثانية . كنتُ أعرف أنّ أفضل دواء لهذه الكلمات السامة ، هو تجاهلها ، والتظاهر بأنك لاترى أو تسمع من يطلقها ، لكنني رغم ذلك لم أتمكن من تجاهل نظرات باسل نحوى ، كان ينظر إليّ بطريقة مختلفة اليوم ، ولم يشارك زملاؤه سخريتهم ، بل إنه حمل حقيبته وغادر المجموعة ، تاركا على وجوههم علامات تعجب فارغة ، هل شعر بالهزيمة ؟

ربما ؟!

جلستُ قرب باسل ، وتعمدتُ وضع حقيبتي الخضراء فوق الطاولة لأتمكن من إغاظته ، ثم أخرجتُ كتاب التاريخ و أثرت بعض الجلبة لأشد نظره نحوي ، إلا أنه لم يلتفتْ ولم يختلس النظر حتى .

كان يجلس باعتدال وينظر باستقامة نحو الأستاذ الذي كان يقف بجانبي دون أنْ انتبه لوجوده ثم قال :

-مروان ، هل سأنتظر اليوم كله لتتمكن من اخراج كتاب التاريخ من حقيبتك الخضراء التي تضعها فوق الطاولة .

نظرتُ حولي فرأيت جميع الطلبة قد فتحوا كتبهم وجلسوا منتبهين باستثنائي أنا . فأسرعت بإنزال حقيبتي ثم أخذتُ ألوم نفسي على حماقتي .

كان درس التاريخ يدور حول بابل ، المدينة القديمة في العراق ، لا أحب دروس التاريخ لكن هذا الموضوع جذبني بشدة ، فقد تحدث المعلم عن حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم .

كانت المدينة محاطة بخندق مائي، بناه نبوخذ نصر للملكة (أميهيا) التي كانت من الطبقة الوسطى في البلاد ، وقد عاشت حياتها في مناطق جبلية خضراء ، ومع زواجها من نبوخذ نصر وجدت نفسها مجبرة على العيش في أرض بابل المنبسطة فكانت تشتاق إلى رؤية الجبال الخضراء والحدائق الغناء في وطنها ميديا.

لذا بنى لها تلك الحدائق المعلقة التي كانت تدخل المرح والسرور إلى قلب الإنسان عند النظر إليها من فرط جمالها وروعتها ، فقد زرعت فيها جميع أنواع الأشجار من الخضروات والفواكه والزهور التي تظل مثمرة طوال العام بسبب تواجد الأشجار الصيفية والشتوية ، وقد استخدم الملك لبناء هذه الحدائق الأسرى اليهود الذين جلبهم من بلاد الشام في ذلك الوقت وجعلهم يعملون ليل نهار، لبناء الجنائن المعلقة .

ثم قام بتشيد قصر كبير وزرع على سطحه كميه كبيره من النباتات والأزهار ذات الألوان الجذابة بحيث غطي شكل القصر وكأنه جبل مزروع بالنباتات والأزهار. وزرعت الأشجار والأزهار فوق أقواس حجريه يبلغ ارتفاعها 23 متراً فوق سطوح الأراضي المجاورة للقصر وكانت تسقى من مياه الفرات بواسطة نظام ميكانيكي معقد وكانت تقع على الضفة الشرقية من نهر الفرات ، حوالي 50 كم جنوب بغداد.

دق الجرس معلنا بدء وقت الاستراحة ، إلا أنني لم أقاوم رغبتي في معرفة المزيد عن تلك الحدائق ، فتوجهت إلى مكتبة المدرسة ، وسحبتُ كتابا عن الحضارة البابلية وأكملتُ شغفي لأعرف المزيد عن تلك الحدائق المعلقة ، التي بنيت مرتفعة عن سطح الأرض ، كأنها معلقة في الهواء .

ربما لو أخبرك أحدٌ عن وجود حدائق معلقة فلن تصدقه ، لأنه سيظل يتساءل عن كيفية تعليقها ،والسبب في بنائها معلقة، لكنني عثرتُ على الجواب المقنع لتلك الفكرة في أحد الكتب القديمة .

لقد وجد الملك نفسه مجبرا على تصميم حدائق ترتفع عن الأرض لعدم توفر المكان الكافي للزراعة ، فقد كانت بابل في تلك الفترة من أغنى المدن في العالم ، ولحماية المدينة التي كانت معرضة للسرقة فقد بنى الملك سورا ضخما يحيط بالمدينة ويحفظها من الأعداء الذين كانوا يطمعون بها ، لذا كان من الصعب إيجاد مساحات تصلح لحديقة ممتدة على المدينة التي كانت تكتظ بالسكان ، وقد كان العبيد في بداية الأمر يسقون الحديقة بواسطة قرب تملأ من ماء النهر ، لذا ما إن تدخل المدينة حتى تجد صفوف السقاءين تخترق المدينة قاصدين الحدائق الملعقة ، ثم ابتكر العلماء نظام ري معقد لرفع الماء وسقي الحديقة الكبيرة بعد أن عجز السقاءون عن توفير الماء الكافي لسقيها .

إنها حقا إحدى العجائب ، لكنها لم تكن مستحيلة ، فكل شيء ممكن إذا وجدت الطريقة والآلية الصحيحة للتنفيذ ، فهل يمكن أن نرى تلك الحدائق مرة أخرى في هذه المدينة ،

ربما يحتاج الأمر لمهندس بارع يمكنه تكرار تلك التجربة ، كوالدي ، المهندس الزراعي الكبير .

لكنه لن يلتفت لفكرة غريبة كتلك ، لابد أنه سيجد الفكرة سخيفة وقديمة بعض الشيء ويصعب تطبيقها في مدينة حديثة وملوثة .

لكنني أحببت الفكرة وسأحاول تنفيذها في مشروع العلوم لهذا العام ، لن يجد باسل فكرة منافسة كتلك ، سيبهره الأمر حتما ، وسيقبل بالعمل عليها معي ، لدي الكثير من المعلومات التي سيحتاجون إليها لتطبيق الفكرة ، سأكون مرجعهم الخبير بالتأكيد .

7

مشروع العلوم

في الفصل كنتُ أجلس في حلقة نقاشية مع مجموعة باسل الذي كان يتجاهلني متعمدا ، لقد سمح للجميع بعرض أفكارهم حول موضوع المشروع الذي سيعملون عليه ، بينما تجاهل فكرتي في صنع نموذج مصغر للحدائق البابلية كأنه احتقرها أو استصغرها .

لقد شعرتُ بالإهانة لأنه لم يسألني عن المهمة التي أرغب في اختيارها ، بينما وجه سؤاله للجميع باعتباره رئيس الفريق ، كان جليا للجميع أن باسل يحاول استبعادي من المجموعة عندما أوكل إلي أصعب المهام ، وهي تصميم الدارة الكهربائية للرجل الآلي ، وهو عمل لم أتقنه أبدا واعتذرت عن القيام به ، فقال باسل :

- إن لم تتمكن من إنجاز مهمتك ، فيتوجب عليك البحث عن فريق آخر لتعمل معه ، إنْ وجدتَ من يقبل بك مع هذا المستوى المتدني من المهارات .

شعرت بالضيق من تصرفات باسل ، فاستأذنت الفريق كي أغادر باكرا لأقابل معلمة العلوم قبل أن تنصرف ، قرعتُ الباب ، فوجدتها كعادتها في مختبرها ، تنظر في المجهر أمامها :

- تفضل ..

- عفوا معلمتي ، هل يمكنني أن أحدثك في أمر هام يخصني .

- تفضل يا مروان .

تقدمت بضع خطوات وجلست على كرسي قريب ، ثم رفعت رأسي وقلت بتردد :

- لا يمكنني العمل في مشروع العلوم مع الفريق .

- وهل يمكنك أن تخبرني بالسبب ، هل تجد الأمر صعبا عليك ؟

- لا ليس كذلك ، لكنني أرغب في العمل في مشروع آخر ، فانا لا أتقن العمل على الرجل الآلي .

قالت بحماس :

- إذا هي فرصة لتتعلم شيئا لا تتقنه .

- أقصد أنني أحب النباتات ، وأجد متعتي في كل شيء يخصها .

- ولكن العمل في فريق هو جزء من مشروع التخرج وتحتاج إلى زملائك لمساعدتك في ذلك .

- أنا لا أعارض العمل في فريق ، أحب أن أعمل معهم ولكن ..

لم أستطع أن أجد الكلام المناسب ، وقد بدا أن المعلمة لا ترغب في وجود مجموعات منفصلة أو أنها لا تحب العمل الفردي ، كان باديا من لهجتها أنها ترغب في أن أعمل معهم حتى لو كنت لا أحب ذلك ، فهي تؤمن بأهمية التعاون وتبادل الخبرات بين الزملاء .

بقيتْ المعلمة صامتة لبرهة وهي تراقبني باهتمام ثم قالتْ :

- دعنا نرى ما يمكنك تقديمه في مشروع الفريق ، ويمكننا التحدث لاحقا عن فكرتك التي تريد تنفيذها ، قد تتعلم مهارات جديدة لن تتمكن من اكتسابها لو عملت لوحدك ، كما أن العمل الجماعي يساعدك في التقرب من أصدقائك ، خاصة أنك تلميذ جديد ، وهي فرصة مناسبة لاكتساب أصدقاء جدد ، صدقني لن تندم أبدا ، ومجموعتك هي من أنشط المجموعات التي أشرف عليها ، لذا حاول أن تشاركهم اهتماماتهم ، فهم حتما سيشاركونك اهتماماتك .

كان كلامها منطقيا إلى حد ما ، فالعمل الجماعي يكسبنا مهارات كثيرة وخبرات جديدة ، باستثناء العمل مع باسل فهو لن يزيدني إلا بؤسا .

8

المهارة تُكتَسب

كان والدي غارقا في التفكير وهو يمسك بقلم ومسطرة ، ويخطط باهتمام على خريطة كبيرة للمدينة ، كان يرسم ببراعة كمهندس زراعي جوانب الطرقات وحول الأبنية والممرات ، بدا المكان حول تلك المساحات الصغيرة ضيقا ، لكنه تمكن من إيجاد مساحة مناسبة للزراعة بجانب كل تلك الأبنية ، فقد تم توظيفه في قسم الحلول البيئية التابعة لشركة (تخضير) ، وكان يتوجب عليه البحث عن حلول خضراء تسهم في حل مشكلات المدن المزدحمة التي تتعلق بالبيئة وخاصة الهواء والماء بصفته مهندس زراعي ، جلستُ أراقبه ساعات طويلة وهو منهمك في العمل ، وأنا بقربه أعمل على تنفيذ مخطط الدائرة الكهربائية (للرجل الآلي) قلتُ بعد جهد ونفاد صبر :

- أبي ، أريدك أن تركب لي هذه الدارة الكهربائية ، فأنت بارع في ذلك ..

أمسك والدي بالدارة وقلبها بين يديه ثم قال :

- يمكنني أنْ أصنعها لك وأصبح أنا الخبير ، أو يمكنني أنْ أرشدك إلى كيفية صنعها بنفسك فتصبح أنت الخبير .

قلتُ معترضا :

- لكن ذلك سيستغرق وقتا طويلا ، أحتاجها بعد غدٍ .

رد والدي :

- وهل ظننتَ أنني أصبحت بارعا دون أنْ أبذل أي مجهود ، لقد استغرق الأمر وقتا لأتمكن من إنجاز كل ما أتقنه الآن ، فكّر في موقفك وأنت تقف أمام زملائك عاجزا وضعيفا .

نظرتُ إلى الدارة بين يدي والدي وأنا أفكر في المشكلات التي قد تطرأ فجأة ، تخيلتُ اللحظة التي تتعطل فيها الدارة أثناء العرض ثم يطلب مني زملائي إصلاحها ، فأعجز عن ذلك ، حتما سيكون ذلك محرجا ومؤلما ، عندها قلت بتردد :

- أرشدني إذا .

قدم لي والدي كتابا حول الدوائر الكربائية المبسطة ونصحني بمواقع على الإنترنت لمشاهدة عملية التصنيع خطوة خطوة ، فتمكنت من إنجازها بعد 20 ساعة مشاهدة لأفلام تعليمية متخصصة ، مع عدد هائل من الملاحظات التي كتبتها على أوراق ملونة وصنفتها تبعا لتسلسل العمل بها .

في اليوم التالي انتهيت أخيرا من الجزء الخاص بي ، وكذلك فعل والدي ، الذي بدا سعيدا ومتحمسا ، طوى المخططات التي كان يعمل عليها وقبلني قبلة المساء ، وانصرف إلى النوم .

بقيتُ مستيقظا أفكر في كيفية تنفيذ مشروعي البابلي ، حلمتُ كثيرا وقادني الخيال إلى عالم أخضر لا ينتهي ، الطيور والأزهار ، المدينة كئيبة حقا بلا أشجار ، لذا تجد السكان ينتشرون في أيام العطلات في المعسكرات والمرافق المخصصة للحياة البرية خارج المدينة لمسافة تصل إلى خمس ساعات بالسيارة ، لماذا يعودون إلى الطبيعة بعد أن تخلوا عنها ، إنها جزء منهم ، وهم جزء منها لذا لا يمكنهم التخلي عنها أبدا مهما بدتْ لهم الحياة الجديدة ممتعة .

في اليوم التالي اجتمعت مع الفريق في مركز العلوم ، وقدم كل منا عمله ، كان رئيس المجموعة (باسل) يتفقد الأجزاء المنتهية من المشروع ، فوقف أمام دارتي الكهربية ، تفحصها بدقة ، ثم نظر في عيني مباشرة للمرة الأولى نظرة لم أفهم معناها ، لكنه بدا راضيا على غير عادته ، قال معقبا :

- لا بأس ، لكنها بحاجة لمزيد من التعديل .

ما الذي عناه بمزيد من التعديل ، لقد قضيتُ الليل كله أنفذ المخطط كما هو مرسوم بدقة ، وأعدتُ تجربته مرارا حتى تأكدتُ من أنه يعمل جيدا ، فهل يتعمد إهانتي أم أنه عازم على إقصائي من الفريق .

أمسك بالدارة الكهربائية ، وأضاف إليها المزيد من القطع الصغيرة والموصلات والأسلاك ، ثم اختبرها ثانية ، وظل يضيف المزيد من القطع الصغيرة والكبيرة والملونة ويختبرها ثم يعيد إضافة المزيد ويلحم بمهارة الموصلات ، حتى ظهرت على وجهه علامات الرضا فقال :

- الآن هي جاهزة لنضعها في (الرجل الآلي) ، ستمدنا الآن بطاقة مضاعفة بسبب الموصلات ومعززات الطاقة الإضافية ، ولن نقلق من انقطاع الطاقة أثناء العمل فيمكن

للرجل الآلي أن يتزود بالطاقة الشمسية ويخزنها على شكل كهرباء إن نفدت منه البطارية الأساسية ، وهكذا نحصل على مصدر طاقة مجاني ودائم .

قال خالد :

- إنها معززات طاقة حديثة ، من أين حصلت عليها ؟

رد متفاخرا :

- من شركة والدي لحلول التقانة ، لقد وصلت شحنة جديدة البارحة وسمح لي بتجربتها ، أليست مبتكرة !!

قال محمد مبهورا :

- ستعزز أداء (الرجل الآلي) وسنحصل على درجات إضافية بسبب ذلك .

مصدر طاقة مجاني ودائم ، هذا تماما ما كنت أبحث عنه ، كان (باسل) ماهرا وخبيرا في مجال (الرجل الآلي) فرغم معاملته الفظة لي ، فقد تعلمتُ من العمل معه الكثير من المعلومات المفيدة التي لم أكن أعرفها حول الطاقة والموصلات والمعززات .

أما (خالد) فقد كان عمله يتمثل في برمجة (الرجل الآلي) ليقوم بأعمال محددة وفق برنامج خاص يتم تسجيله على شريحة إلكترونية مزروعة في نظام معقد في الذاكرة الحرة ، ويمكن تعديل تلك المعلومات بوصل (الرجل الآلي) بجهاز الحاسوب ، وقد صمم بمهارة العديد من الأعمال التي سيقوم بها (الرجل الآلي) كالرسم على ورقة فارغة ، وكتابة بعض الأسماء ، وتنظيف المكان ، ولعب كرة القدم ، وقد تعلم كل ذلك من كتاب استعاره من المكتبة ، كما ساعده والده ببعض العمل لأنه مهندس برمجيات وخبير في البرمجة ، لذا لم يجد صعوبة في تنفيذ الجزء الخاص به .

قدمت (نوران) هيكلا من السيراميك صنعته بنفسها ليكون جسدا خارجيا يتم به تغطية أجزاء (الرجل الآلي) الحساسة ، وقد كان من البراعة بحيث أنه احتوى جميع الأجزاء وأخفى الأسلاك التي كانت تشوه منظره ، ثم نفذتْ بعض التعديل في الجزء الخلفي ، فبهرني عملها وقدرتها على تصميم جسد متناسق للرجل الآلي جعله يبدو كإنسان آليّ صغير ، يسير بقدمين صناعيتين .

ولم تمض لحظات حتى وصل (محمد) الذي انتهى لتوه من إعداد التقرير الخاص بالعمل ، وتزويده بالصور التي توثق كل خطوة ، وقد تفنن في تنسيقه وتنظيمه ليبدو مثاليا ومنمقا ، وجاهزا للتقديم .

أما (مهرة) فقد أعدت العرض الذي سيقدم أمام المجموعات ، ونظمته في برنامج عرض الشرائح ، ولم يتبق سوى تجربة العمل والتدرب على التقديم الذي سيتم بعد يومين .

لقد استمتعنا بالتعليقات الهادفة التي زود كل منا بها الآخر ، رغم أنني كنت أكثرهم خجلا وارتباكا أثناء التدريب على العرض ، أمسك باسل بيدي ثم رفع رأسي ليواجهه مباشرة فقال :

- لايمكنك أن تفسد العمل الذي تعبنا فيه جميعا ، عليك أن تتوقف عن التفكير فيما سيقوله الآخرون ، وركز على إنجاز العمل الذي بين يديك .

- فهمتْ .

كانت تلك نصيحة جيدة ، فقد كان التفكير في تقييم الآخرين لي يقطع تسلسل أفكاري ، ويدفعني للتلعثم في الكلام .

في الحقيقة كنت مبهورا بعملهم المتقن ، وتأكد لي كلام معلمتي من أنّ العمل الجماعي يكسبنا العديد من المهارات التي لم نكن لنكتسبها لو أننا عملنا بمفردنا ، لقد شعرت أنني أقلهم مهارة ، لكنني لم أقلل من ذاتي ، ولم أسغرق في تأنيبها أو توبيخها ، فأنا أؤمن بأن لكل إنسان قدرات كامنة يمكنه استخراجها مع التعلم والمثابرة ، وتخيلت الخسارة التي كنت سأتعرض لها لو أنني عملتُ لوحدي ، لكنت قد قدمتُ عملا ضعيفا وغير متقن ، لكن باجتماع كل تلك الخبرات استطعنا أن نقدم رجلا آليا حقيقيا يعمل بطاقة مجانية ، ويقوم بمهمات متعددة قابلة للتعديل والإضافة ، فما أروع العمل الجماعي وما أكثر منافعه .

انهى الجميع عمله ، وقبل أنْ نغادر ، نظر باسل إلي وابتسم نصف ابتسامة ، ثم سار مبتعدا على عجل ..

لا أعرف السبب الذي جعلني أشعر بالسعادة ، لكنني أدركتُ أنّ هناك شيءٌ ما تغير بداخله .

9

السّر

عدت إلى المنزل متحمسا ، لأخبر والدي بما حققناه من عمل في المدرسة ، لقد استطعتُ إنجاز عمل مدهش مع زملائي الذين توطدت علاقتي بهم ، وأصبحنا حقا أصدقاء ، لقد أثبتُ نفسي وبرهنتُ لهم أنني لا أقل عنهم مهارة ، فوجدت والدي يتكئ على الأريكة بصمت ويغرق في تفكير عميق ، لم أعر الأمر اهتماما وفكرت أنه ربما يفكر في مشروعه الجديد ، أسرعتُ بوضع حقيبتي على الأرض ، ومشيت نحوه مسرعا :

- أبي ، لن تصدق أنني صنعتُ أنسانا آليا حقيقيا ، يمشي ويصدر أصواتا ويقوم بمهام مختلفة !

لم يرد والدي عليّ تلك اللحظة ، لقد بدا أنه في مزاج سيء ، فقالت والدتي التي كانت تجلس قريبا منا :

- يحتاج والدك للراحة يا بني ، لقد كان يومه صعبا في العمل ، اتركه ليرتاح قليلا ، وستجد أنه سيشاركك الموضوع لاحقا ، اصعد إلى غرفتك الآن .

حملت حقيبتي التي تبعثرت منها بعض الأغراض ، ونظري معلق على والدي الذي بدا أنه منفصل عن عالمنا وغارق في عالم آخر أكثر كآبة .

لقد أصبتُ بالإحباط بعد أن تجاهل الجميع إنجازي ، لقد شعرتُ أنه بلا قيمة ، ولايستحق الثناء أو التقدير .

جلست على سريري أحدق في الحقيبة الخضراء لكنني لم أتمكن من النوم ، سحبت الغطاء ، فشعرتُ بباب الغرفة يفتح ببطء ، كان والدي يطمئن علي ، لكنني لم أرغب في التحدث إليه لأنني كنتُ غاضبا ، فتظاهرت بالنوم .

قبلني على جبيني ثم أطفأ الأنوار وانصر، تمكنت حينها من الشعور بثقل أنفاسه على وجنتيّ ، ربما كان يومه في العمل سيئا كما قالتْ والدتي ، كان من القسوة ألا أتفهم مشاعره ، إنه يعمل من أجلنا ، ونجاحه جزء من نجاحنا ، ربما كنتُ أنانيا لأنني لم أسأله عما يعكر صفوه . لقد كان دائما يدعمني ويمدني بالقوة عندما أحتاج إليها ، والآن هو بحاجة لمن يمده بالقوة أيضا ، ربما لم يكن من اللائق أنْ أغضب ، فانا لم أره حزينا هكذا ، سوى في تلك الليلة ، آخر ليلة في المزرعة .

لقد نام يومها على الأرض و بين الأشجار تحت ضوء القمر ، كأنه الوداع الأخير ، أو كأنه ينتزع قطعة من قلبه ، لطالما أحب المزرعة وأحب ما فيها ، تلك النظرة وذلك الحزن أراه للمرة الثانية الآن ، لابد أنّ ما حصل أمر كبير، أمر يقهر إرادته ، ويعجز عن مواجهته ، مسكين أبي .

فتحت باب غرفتي وتسللت إلى حيث يجلس في ركنه الصغير كعادته ، ينظر بحزن إلى المخططات التي كان قد أعدها مساء البارحة ، لكنه لم يكن سعيدا بها ، ولم يبد أنه مهتم بالنظر إليها كما يفعل عادة عندما ينجز مشروعا زراعيا مميزا ، حمل قلما وحاول أن يضيف بعض الخطوط ، لكنه انهار بغضب وألقى القلم من يده على الأوراق ، ثم حمل المخططات وأخذ يمزقها بقوة ، ويلقي بها في سلة المهملات ، لقد كان غاضبا لدرجة أن والدتي أخذت تبكي لرؤيته في الحالة التي بدا عليها ، ورجته أن يتوقف عن تمزيق الأوراق التي تعب في تصميمها ، قالت بحرقة بعد أن مسحتْ دموعها وهي تمسك بيده :

- أرجوك توقف ، لا تفعل ذلك بنفسك ، لست أول شخص يتم رفض عمله ، حاول مرة أخرى ، حتما ستنجح .

وضع والدي يديه على وجهه ليخفي الخزي والألم الذي كان يعصف بداخله ، ثم قال على مضض :

- لقد استهزأ بي الجميع ، كانوا يغمزون إلى بعضهم البعض وهم يضحكون .

- لا بأس لا بد أنهم يجهلون قدراتك ، عليك أن تثبت لهم أنك قادر على حل تلك المشكلة .

ألقى والدي بالمخططات في سلة المهملات كالمجنون ، فشعرتُ حينها بقلبي يدق بشدة ، كان يائسا بحق ، لكن والدتي لم تتركه يلقي بها في سلة المهملات ، كانت تعيد رفعها ووضعها ثانية على طاولة العمل ثم تقول له بكل حزم :

- لا ، لا ، عليك ألا تستسلم ، ستجد الحل ، لا يمكنك التوقف الآن .

- بل يمكنني ، لقد خسرتُ مزرعتي ، وقدمتُ إلى هذه المدينة الجرداء أملا في استعادتها لكنني فشلتْ ، لقد طلبوا مني أن أجد طريقة لزراعة المدينة بالأشجار ، ففعلتْ ، ملأت الشوارع والطرقات بالأحواض والنباتات ، لكن هذه المدينة الخرساء ، لا تراب فيها ، لا طين ،لا مساحات ، كيف يمكن الزراعة في مسطحات اسمنتية ، لا أحد يزرع فوق الاسمنت .

- هناك طرق أخرى لزراعة المدينة ، يمكن إحضار التراب من المناطق المجاورة التي يكثر فيها .

ردّ أبي بانفعال شديد :

- إحضار التراب !! لقد كان ذلك أول شيء ضحكوا عليه ، هم لا يريدون تراب ، المدينة نظيفة والتراب يوسخ المدن ، هل تصدقين أمرا كهذا ، وكأن الدخان الذي يحيط بهم لا يوسخ رئاتهم ، من يهتم إلى التراب في الأرض .

- عليك أن تفهم سبب رفضهم لتلك الفكرة ، لا بد أنهم يبحثون عن حلول تناسبهم .

- أتعلمين أنني عاشر مهندس زراعي يوظفونه هذا العام ، لقد أنهوا التعاقد معهم جميعا بعد أن عجزوا عن وضع حلول تناسبهم ، كانوا يتذمرون من كل المقترحات والأفكار ، بعضها يضيق الشوارع وبعضها يوسخ المدن وبعضها مكلف وبعضها مستحيل وبعضها ساذج ، لقد سئمت من تقديم الأفكار التي لا تلاقي استحسانهم .

- قدم المزيد ، لا بد أن هناك ما يناسبهم .

- لا يوجد المزيد ، لقد أخبروني أنهم سيعطونني مهلة أخيرة لمدة شهر ، يتعين علي بعد ذلك العودة إلى الريف من حيث جئت إن لم تنل إعجابهم ، حلول خضراء ، أشجار بلا تربة ، توفير المال ، توفير الطاقة ، هل فقدوا عقولهم ، كيف يمكن تحقيق كل تلك الطلبات في مشروع واحد ؟ !!

- عزيزي ، عليك أن تفكر بطريقة أخرى ، لا تتقيد بما تعرفه فقط ، فكر بالأشياء التي تحلم بها وبإمكانية تحقيقها ، فكر بالإمكانيات ولا تجعل خيالك محدودا ، استفد من دراسات الآخرين وابن عليها ، لقد استطاع نيوتن أن يحقق ألف اختراع ، ولما سئل عن كيفية تحقيقها أجاب بأنها جميعها أفكار لعلماء آخرين حاولوا لكنهم توقفوا عن المحاولة بعدما يئسوا ، أما هو فقد تابع المحاولة حتى نجح .

- نيوتن ، نعم ، أنا لست نيوتن ، أنا مهندس زراعي فاشل .

- إذا حكمت على نفسك بالفشل فأنت حقا شخص فاشل .

انصرفت والدتي غاضبة بعد أن أصر والدي على موقفه ، لم أشعر بعيني اللتان كانتا تسكبان الدموع ، لقد بكيت بحرقة تلك الليلة ، لشد ما كنت فرحا ، ولشد ما كنت متألما ، وما زاد من بؤس والدي أنه ترك كل شيء في الريف من أجل هذه الفرصة في المدينة .

ترك كل ما يحب من أجل ما لا يحب ، تمنى أن لا يعود خائبا ، كما خرج خائبا ، بدا محطما وكئيبا حتى أنه لم يتناول معنا طعام الإفطار ، الذي لم يكن ليفوّته يوما ، تمنيت لو أن باستطاعتي مساعدته ، لكنني لا املك سوى الدعاء له ، وهذا هو كل ما يمكنني تقديمه من أجله .

10

البطاقة الحمراء

انتهت جميع الفرق من إعداد مشاريعها ، ولم يبق سوى يوم لعرض المشاريع ، هنأتنا المعلمة لسرعة الإنجاز ، ثم وزعت علينا بطاقات ملونة وطلبت منا أنْ نصمم بطاقات لدعوة أهلنا لمشاهدة عرض المشاريع .

تخطفنا الأوراق لنحصل على اللون الذي نحبه واستطعتُ الحصول على اللون الأحمر المفضل لدي ، كنا منهمكين في تصميم البطاقات وتزيينها وتلوينها ، لكن (باسل) لم يكن بتلك الحماسة ، بدا شارد الذهن ومكتئبا على غير عادته ، ولم يكن يرسم أو يخط على الأوراق شيئا كالآخرين ، ولأنني كنت بارعا في الرسم ، عرضتُ عليه مساعدته في رسمها ، ابتسم مرغما ثم قال :

- لا بأس لا أظن أنني بحاجة لواحدة ، فلن يأتي والدي على أي حال .

فرحتُ عندما رد على سؤالي ولم يتجاهلني كعادته ، قلتُ حينها :

- لماذا ، هل هو مريض ؟

- لا بل هو دائما مشغول ، لن يترك عمله ويحضر ، لقد تعودتُ أن لا أراه في أي مشروع أقدمه .

شعرتُ بالحزن لأجله ، كيف يمكن أن يفوّت والده فرصة كهذه ، لا بد أنه لا يعرف أنّ (باسل) ولد ذكي ومحترف ، لماذا يلهث الآباء خلف نجاحاتهم الكبيرة وينسون مشاركة أبنائهم في نجاحاتهم الصغيرة ، لا بد أنهم كانوا أطفالا يوما ما ، ولا بد أنهم كانوا بحاجة ليد تربت على أكتافهم لتشعرهم بقيمة النجاح الذي حققوه ، ولمشاركتهم فرحتهم بإنجازهم ، كان أبي يفخر بأبسط نجاح أقوم به مثلما فعل عندما زرعت نبتتي الأولى ، لقد شعرتُ أنني أملك والدين رائعين ، وما حصل البارحة كان مجرد أمر عارض ، سرعان ما ستعود لأبي طبيعته المرحة ، ما إن يحقق هدفه .

قالت المعلمة :

- سعدتُ بعملك مع الفريق يا (مروان) ، لقد أثبتَّ أنك تملك مهارات متميزة ، لذا ساترك لك غدا خمس دقائق ، لتعرض مشروعك عن الحدائق الذي حدثتني عنه الأسبوع

الماضي ، لقد كان هدفي ألا تفوت على نفسك فوائد العمل في مجموعة متكاملة ، وأحب حقا أن أسمع تلك الفكرة ، فهل ترغب في عرضها ؟

شعرتُ بالإثارة ، ولم أعرف ما الذي ينبغي عليّ قوله حينها ، قلت بانفعال :

- لكنني لم أعد المشروع .

- " لا بأس يمكنك عرضه شفاهة وفق مخطط بسيط ، فأنا لا أرغب في جعله عبئا عليك ، إنما أحببتُ أن أسمع الفكرة ، ويسمعها الآخرون أيضا ، نحن نحب الأفكار التي يتحمس لها أصحابها .

قلت بسعادة غامرة :

- نعم ، يسعدني ذلك .

زاد إعجابي بمعلمتي التي تقدرنا وتحترم أفكارنا ، إنها معلمة رائعة ، ويشعر من يعمل معها بسلام و أمان داخلي يجعله واثقا من نفسه ، ومندفعا للإنجاز ، لو أن جميع المعلمين يمكنهم أن يكونوا بتلك الروح لنشأت أجيال محبة للعلم والتعلم ، فكم من كلمة خرجت من فم معلم نشأ عنها نجاح كبير ، وكم من كلمة سقطت من فم معلم نتج عنها فشل ذريع .

وفي غمرة فرحتي استدرتُ لأعرض على (باسل) البطاقة التي صنعتها لكنه كان قد اختفى ، لقد غادر بعد أن ترك أوراقه فارغة ، إنه لا ينوي إرسال بطاقة دعوة لوالده قلت في نفسي : (عليه أن يحاول) ، من المؤسف أنْ نصل إلى مرحلة من اليأس تمنعنا من التوقف عن المحاولة.

نظرتُ إلى بطاقتي التي رسمتها لوالدي ، فمسحتُ اسمي وكتبت بدلا منه اسم باسل .. انطلقتُ خلفه مسرعا لأسلمها له ،علّه يعدل عن قراره ويقدمها لوالده ، لكنه كان قد غادر مع والدته التي جاءت لاصطحابه باكرا بسيارتها على غير العادة ، ربما لم يكن مقدرا له أن يقدمها لوالده ، وربما لم يشأ أن يصاب بخيبة أمل جديدة تزيد من تعاسته ، طويت البطاقة ، ووضعتها في جيبي ، ثم قلت بحسرة :

- الآن لن يحصل عليها أحد .

ثم جلست أنتظر قدوم والدتي ، التي تأخرت في الوصول .

11

لقاء غير متوقع

وقفتْ سيارة سوداء ، خرج منها رجل طويل مهندم ، بدا جادا وعلى عجلة من أمره ، نظر حوله في أرجاء المكان ، لكنه لم ير ما كان يبحث عنه ، تراجع برهة ثم اتصل بهاتفه ، سمعته يتحدث ويسأل عن (باسل) قلت مذهولا :

- يا إلاهي ! إنه والد باسل ، لو بقي بضع لحظات بعد لتمكن من رؤيته .

لكن ما الذي جاء به في حين أن والدته هي من يصطحبه عادة من المدرسة ، مشى مسرعا ليركب سيارته ، فتذكرتُ بطاقة الدعوة فركضتُ نحوه مسرعا وأنا أحثّ قدميّ على أن تبذل جهدا مضاعفا . طرقتُ على نافذة السيارة الفاخرة ففتح وهو يحدق في وجهي مستنكرا أنه يعرفني ، قال بلطف :

- نعم يا بني .

- هل أنتَ والد باسل ؟

- نعم !

- لقد ترك لك باسل هذه الدعوة .

أخرجتُ البطاقة المطوية التي كانت في جيبي ، وقدمتها له ، مدّ يده ببطء كأنه متردد في أخذها أو أنه خائف من قراءة محتواها ، سحبها من يدي بسرعة ، ثم وضعها على الكرسي قربه وهو يقول :

- شكرا يابني ، لكن كيف عرفت أنني قادم لأنني لم أخبر أحدا ؟

كان من الذكاء أنْ يسأل هذا السؤال ، فقلتُ محرجا وأنا أفكر في مخرج من المأزق الذي وجدتُ نفسي عالقا فيه دون أنْ اضطر معه للكذب :

-"لقد ترك بطاقته على الطاولة ، لم أرغب في أنْ يفوت على نفسه الفرصة في دعوتك ، فأحضرتها له ، لكنه كان قد غادر.

ابتسم والد باسل وهو يهزّ رأسه ثم قال :

- هذا يعني لي الكثير .

وقفتُ أراقب سيارته وهي تغادر على عجل كأنه على موعد هام ، أما والدتي فقد أفزعها عدم وجودي في المكان المعتاد عند بوابة المدرسة ، فعادة لا أغادر المكان دون أن أبلغها . ركضتُ مسرعا نحوها عندما رأيتها تبحث داخل المدرسة وقد بدا عليها الخوف والتوتر ، سألتني عن سبب اختفائي ، فقصصتُ لها كل ما حدث فهدأت نفسها ، ثم أنبتني على عبور الشارع الخطر بدون مرافق ، لكنها سرعان ما عادت إلى طبيعتها وأخذت تقبلني وتحتضنني كأنني طفل صغير ، قلت محرجا :

- أمي كفا .. أصدقائي يحدقون بي ..

- لقد كبرتَ على ذلك كما أرى ، لكنك لازلت في عيني صغيرا .

في السيارة لم أستطع التوقف عن التفكير في والد باسل ، ترى هل سيحضر عرض باسل لمشروع العلوم؟ .

12

المفاجأة !

كان باسل منشغلا بتجربة (الرجل الآلي) ، والتأكد من أنّ كلّ شيء على ما يرام ، لكنه بالرغم من ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر نحو الباب كلما دخل أحد أولياء الأمور الذين حرصوا على مشاركة أبنائهم العروض ، ربما كان يمني نفسه أن يعد له والده مفاجأة ما ، لكنه استسلم أخيرا للعمل ، وكأنه يسخر من أمنياته التي لن تتحقق يوما .

كانت المعلمة تعد جهاز عرض الشرائح ، وقبل أن يبدأ الجميع عروضهم ، رحبت بالحضور وشكرتهم على حضورهم رغم انشغالهم ثم قالت :

- اليوم لدينا ضيوف عبر الإنترنت ، وهم الآباء الذين لم يتمكنوا من الحضور .

فتحت المعلمة جهاز العرض ، ثم بدأت تستضيف ثلاثة آباء ، ولهول ما رأينا ، تجمد (باسل) في مكانه ، فقد كان والده أحد هؤلاء الآباء الذين يشاركون العرض عن طريق البث الحي من كاميرات مثبتة في الفصل ، وقد كان واضحا من المشهد خلفه أنه يجلس في مكتبٍ خارج البلاد .

لم يستطع باسل أن يتمالك أعصابه ، فقد كان متفاجئا لدرجة جعلته يسقط محول الطاقة ثم أسقط محرك (الرجل الآلي) ، ثم دون أن يقصد أطفأ الجهاز ، فأعدنا فتحه ، كان متوترا لأنه لم يتوقع حدوث أمر مماثل ، فأمسكتُ بيده وقلتُ مهدئا :

- لقد انتظرتَ هذه الفرصة طويلا ، إنه معك الآن .

رد بتوتر :

- لكنني ، لم أقم بدعوته ، لا أعرف كيف علم بالأمر .

قلتُ بارتباك شديد :

- ركز في العمل الذي بين يديك ، وتوقف عن التفكير في الأشياء الأخرى التي تشتتُ انتباهك .

هدأ (باسل) قليلا ، واستعاد حماسه بالرغم من أنه كان يتصبب عرقا ، كان خائفا من

الإخفاق بالرغم من أنه يملك كل الإمكانات التي تجعله ينجح في العرض ، وما إنْ بدأ التقديم ، حتى سارت الأمور على ما يرام ، وانتهى العرض بتصفيق حار ، ثم طلبتْ مني المعلمة أنْ أعرض فكرتي ، فوقفت وأنا أحمل بين يدي لوحة رسمت بها مدينة ليست ككل المدن فقلت حينها :

- لقد قرأت عن حدائق بابل المعلقة ، مما دفعني للتفكير بتنفيذ هذه الحدائق على أسطح البنايات في المدينة ، تخيلوا منظر المدينة من الأعلى خضراء مزهرة ، بدلا من صفائح الاسمنت الرمادي الباهت .

عرضت بعض الصور ثم تابعت قائلا :

- تخيلوا العمل الذي ستقوم به هذه الحدائق في تنقية هواء المدينة ، وخفض درجة حرارة الشمس وتأثيرها على الأسطح ، وتخيلوا الحياة الطبيعة التي يمكنها أنْ تعود من جديد ، كالعصافير المغردة ، والنحل الذي يصنع العسل ، هل يمكننا تربية النحل في بيوت خاصة في هذه الحدائق التي تعانق السحاب لقد كانت أفكار مماثلة ممكنة في تلك الفترة الزمنية ، فهل سنعجز نحن عن تنفيذ فكرة مماثلة مع كل ما نملك من تقنيات وتكنولوجيا ، ربما لن نعرف حتى نجرب بأنفسنا ، شكرا لكم .

صفق الجميع بحماس ، ومن بينهم والدي الذي تألقت في عينيه نظرة الفخر ، كنتُ خجلا من عرض الفكرة ، لكنني شعرت بالرضا اليوم خاصة أنّ الجميع تحمس لها .

وقبل أنْ نختم العرض ، وينصرف أولياء أمور الطلاب ، قدمت المعلمة والد (باسل) الذي كان يرغب في توجيه كلمة خاصة لابنه باسل عن طريق كاميرا الانترنت التي تنقل الحدث مباشرة ، فقال :

- أشكرك يابني على تلك الدعوة الرقيقة التي صنعتها من أجلي ، أنا فخور بك ، وبإنجازك ، وبالمشروع الذي قدمته .

تساءل باسل في نفسه بغرابة : (أي دعوة ، أنا لم أرسم البطاقة ، ولم أرسلها ، من تراه فعل ؟؟)

ثم أكمل والد باسل قائلا :

- لم أكن أدرك أهمية وجودي معك في تلك المشاريع ، فلطالما اعتبرت أنها أعمال تستمتعون بها أنتم الأطفال ، ولن يجد الكبار متعة في الحضور ، لكن ما رأيته وما قرأته

في رسالتك جعلتني أدرك كم كنت مخطئا بتفويت كل تلك السنوات على نفسي لأشاهد أن لي ابنا رائعا ومميزا مثلك .

قالت المعلمة معقبة على الكلام ، بعد أن رأت الدموع تترقرق في عيني باسل :

– لقد أهدانا والدك هذا النظام الجديد للتواصل المرئي عن طريق الإنترنت ، وقال أنه مخصص لجميع أولياء الأمور الذين لا يمكنهم حضور عروض أبنائهم بسبب انشغالهم وسفرهم المتواصل ، لكنهم الآن يستطيعون مشاركتنا أنشطتنا بواسطة هذا النظام الجديد ، إنها لهدية رائعة .

صفق الجميع بحماس لتلك الهدية المميزة ، ومعها لم أستغرب إتقان باسل لمهارات البرمجيات والحاسوب ، فقد كان والده صاحب أكبر شركة إنتاج برمجي في المدينة ، لذا كان دائم الانشغال والسفر لعقد الصفقات وشراء الأجهزة وحضور المؤتمرات ، كل ذلك جعله لا يجد الوقت الكافي لحضور عرض المشاريع في مدرسة ابنه .

رفع والد باسل بطاقة الدعوة التي وصلته أمام الكاميرا ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، عندها قال باسل وهو ينظر إلي :

– كان يجب أن أعرف أنه أنت .

انصرف الآباء ونظرات السعادة تنطلق من أعينهم لرؤية إنجازات أبنائهم الصغيرة التي ستتحول في المستقبل إلى مشاريع عظيمة ، ولم تمض لحظات حتى وجد باسل الوقت مناسبا لتوجيه الشكر إليّ ، كانت عيناه تلمعان بألق كبير ، جعلتْ كلمات الشكر تتخبط على لسانه .

يمكنني القول أنه كاد أنْ يطير من الفرح ، ثم توجه إلى معلمته وشكرها على تعاونها وعلى تلك المفاجأة الرائعة .

انصرف باسل برفقة والدته التي كانت تمسك يده بحنان ، كانا يسيران بسرعة ويتحادثان دون انقطاع ، صعد السيارة ثم التفت نحوي التفاتة أخيرة شعرتُ معها أنه يعتذر بطريقته عن كل ما بدر منه من إساءة .

توارت السيارة خلف الأفق وبقيت أتساءل عن السبب الحقيقي لسعادتي ، هل كانت بسبب مشروع العلوم ؟ ، أم بسبب حدائق بابل ؟ ، أم بسبب باسل ؟ !! ..

13

الإلهام

كان والدي خلال الأيام التالية منهمكا في رسم الخرائط ، فلم يعد أمامه سوى تلك الفرصة الأخير التي ستحدد مستقبله المهني ، كنا نشجعه ونثني على أفكاره ونساعده بآرائنا لنبعد عنه فكرة الفشل التي أوشكتْ أنْ تستحوذ عليه .

لذا حرصنا جميعا على توفير الهدوء له ، وعدم الضغط عليه لاصطحابنا في جولات خارجية في العطل ، فكانت والدتي تتولى تلك المهمة ، فنخرج في أمسيات طويلة لنترك له المنزل هادئا ، وعلى مدى شهر طويل خشيت أنْ يصبح والدي مشغولا مثل والد باسل ، فلا نراه إلا نادرا ، ولا نقدر على مكالمته أو الجلوس معه إلا لوقت قصير ، وهذا الأمر لم نعتد عليه في الريف ، لأن دفء العائلة كان أساس الحياة في كل البيوت هناك .

انتهى والدي أخيرا من المشروع ، وعليه أن يقدمه في الاجتماع الأخير غدا ، كنت حينها أستعد للنوم ، لكن الباب فتح فجأة ودخل والدي الذي جلس إلى جانبي ، ثم مسح على شعري وقال :

- آه يا بني العزيز ، لو تعرف بما أوحيت إلي ، كنت ملهما لي ، وساعدتني كثيرا .

لم أفهم ما عناه ، لكنني شعرت بالفرح والرضا ، سألته عن قصده فقال :

- سأخبرك غدا ، إن تم قبول المشروع .

شعرت برجفة تسري في سائر جسدي ، عندما علمت أنني صاحب الفكرة ، وخشيت أنْ تكون تلك إحدى أفكاري المستحيلة التي يصعب تحقيقها ، لكنه أمسك بيدي بدفء ، وقال لي :

- "لا تقلق ، إنها مجرد فكرة ، ولا علاقة لك بفشلها ، في كل الأحوال ، تأكد أنني أحببتها ، حتى لو تم رفضها .

استيقظ الجميع باكرا ، قبلنا والدي وانصرف إلى عمله حاملا مشروعه الأخير ، وبالرغم من أنه علق في وسط الزحام ، إلا أنه كان هادئا وواثقا ، لقد استعان بالعديد من الخبراء والعلماء ، وأجرى بحوثا مطولة في المكتبات ، بين الكتب والمجلات العلمية التي تعرض

آخر الاكتشافات ، وزار العديد من المراكز البحثية التي تهتم بالزراعة والنبات .

لقد تعلم أن الإنسان لا يولد عالما ، بل عليه أن يستفيد من تجارب وخبرات الآخرين ، ويبني عليها حيث توقفوا ، عليه أن يتابع الطريق الذي بدأه العلماء ، والذي لسبب ما لم يتمكنوا من إكماله .

دخل إلى القاعة حيث كان الجميع بانتظاره ، بعضهم ممن يراهم للمرة الأولى ، والبعض يعرفهم معرفة عابرة أما البقية فهم أعضاء الشركة الرئيسين الذين أوكلوا إليه تلك المهمة .

رتب العرض ، ونظم أوراقه ، وما أن هدأ المجلس حتى قال له المديرالعام :

- أنت تعلم أننا لا نملك الكثير من الوقت لنضيعه ، إنها فرصتك الأخيرة .

كانت تلك العبارة كفيلة باستدعاء مشاعر الرهبة بداخله ، لكنه استعاد ثقته بنفسه ثم قال بشيء من الترقب :

- نعم ، أعلم

أكمل المدير قائلا :

- وتعلم أننا نواجه قضايا شركات التأمين التي تطالبنا بتقديم تعويضات مالية هائلة للسكان بسبب الأمراض التي يعانون منها نتيجة التلوث الذي يتهموننا بالتسبب به نتيجة عدم قيامنا بتقديم حلول فعالة لعلاج تلك المشكلات .

- نعم ، لقد قرأتُ ملفات القضايا .

قال المدير متمما :

- إذا ، أتوقع أن يكون مشروعك الجديد أكثر جدارة من أحواض الزينة التي اقترحت نشرها في كل مكان .

- أعتقد ذلك !

- إذا تفضل بتقديم فكرة مشروعك الأخيرة .

مسح والدي العرق الذي كان يتساقط من جبينه رغم برودة المكان ، ثم بدأ بالكلام

قائلا :

- مشروعي الأخير يحمل عنوان (حدائق في السحاب) تلك الحدائق التي قررت زراعتها على أسطح البنايات الشاهقة ، ستتحول المدينة معها إلى جنة خضراء ، لن تظلّ تلك المدينة الكئيبة الأسمنتية ، ستدب الحياة الخضراء على أسطحها ، وعلى جدرانها .

كان المدير صامتا ، ولم يعقب ، وقد بدا أن الفكرة لم تكن واضحة له بعد من خلال نظرات الدهشة التي ارتسمت على وجهه ، أكمل والدي العرض فقال :

-"إن التقنيات الحديثة أوجدت نوعا خفيفا من التربة للزراعة الآمنة على أسطح المباني ، فلن يشكل وزن التربة عبئا على تلك الأسطح ، كما أنّ درجة حرارة المباني الداخلية ستنخفض بسبب خاصية العزل الحراري التي توفرها هذه السطوح الخضراء ، مما سيزيد من كفاءة التبريد داخل الأبنية وبالتالي تخفيض استهلاك الطاقة بنسبة 60% ، وهي نسبة مرتفعة إذا ما نظرنا إلى حجم المال الذي نهدره على فواتير الكهرباء .

قال المدير معقبا وقد راقته فكرة التوفير :

- هل فكرت في المياه ، تلك مشكلة أخرى ، وهي تكلفة إضافية .

قال والدي وهو يعرض مخططا لمبنى حديث :

-لن تكون تلك مشكلة ، فقد تم تزويد تلك الأبنية بخزانات ضخمة لتجميع المياه الرمادية ومياه الأمطار .

- المياه الرمادية ؟!

- إنه مصطلح يطلق على المياه المستهلكة في البيوت ، سنعيد تكريرها بدلا من هدرها ثم سنجمعها في خزانات ضخمة أسفل المبنى .

قال أحد المستمعين :

- وماذا عن الطاقة التي ستشغل المولدات التي سترفع المياه من الخزانات إلى تلك الحدائق على السطح ، ألن يكون ذلك عبئا إضافيا ؟

ردّ والدي بحماس :

- سنستخدم الطاقة المستدامة ، وهي الخلايا الشمسية التي ستوفر الطاقة الكهربائية اللازمة لهذا الأمر .

قال مسئول آخر :

- وما فائدة تلك النباتات على الأسطح .

قال والدي الذي بدا سعيدا بالنقاش الحيوي الدائر وبحماس وفضول المستمعين الذين بدؤوا يقتنعون بالفكرة التي يعرضها عليهم :

- يمكننا زراعة أشجار للظل والراحة ، وسوف تكون كحديقة يقصدها سكان المبنى مع أطفالهم للترفيه والاستمتاع بجمال تلك الحدائق .

قال آخر :

- ليست كل الأبنية سكنية ، هناك المصانع ، والأسواق ، والشركات ، لن يكون وجود الحدائق نافعا حينها ،

رد والدي بثقة :

- في الشركات ، الحدائق تقلل التوتر أثناء العمل ، وفي الأسواق يمكننا زراعة الخضار والفواكه العضوية وبيعها للمطاعم والمتسوقين .

ضحك الجميع من تلك الفكرة ، ثم قال المدير :

- لا أدري ، تبدو فكرة غريبة بعض الشيء أن نبيع الخضار للمتسوقين ، ربما لو اكتفينا بالاقتراح الأول

قال والدي :

- إنّ انتاج الخضار في مزارع خاصة داخل المدينة يقلل من استهلاك الوقود الأحفوري الذي تستخدمه شاحنات النقل التي تقوم بنقل تلك الخضار لآلاف الكيلومترات . مما يسهم في التقليل من انتشار ثاني اكسيد الكربون في الهواء ، تخيل آلاف الشاحنات التي لم تعد تدخل المدينة ..

أخذ الجميع يتناقشون بحدة في الإمكانيات التي تقدمها تلك السطوح والمزراع الخضراء داخل المدينة فقال المدير العام :

-لكن علينا دراسة جدواه أولا ، ويجب تطبيق المشروع في مكان قريب ، ودراسة نتائجه ليتم تعميمه على بقية الأبنية ، لن أقبل المشروع الآن ولن أرفضه ، حتى أرى نتائج دقيقة لحدائقك التي ستبنيها فوق السحاب ، عندها يمكنني الفصل في أمر تعيينك أو الاعتذار عن قبول المشروع بأكمله ، لكن إلى الآن تبدو الفكرة كافية لإسكات شركات التأمين التي تطالبنا بملايين التعويضات .

هناك بصيص أمل ، على الأقل لم يتم رفض المشروع ، لكن كيف له أنْ يطبق لوحده مشروعا مماثلا ، إنّ تكلفة ذلك النوع من المشاريع عالية مبدئيا ، بالرغم من عوائدها المضمونة ، من أين له أن يطبق مشروعا ضخما مماثلا ، فهو بحاجة لمعدات وأجهزة لقياس مقدار التغير في الحرارة و تلوث الهواء ، وبحاجة إلى تصنيع المواد الأولية التي سيستخدمها للمشروع والتي لا تتوفر في الأسواق الحالية .

فقال والدي للمدير الذي كان يتناقش مع فريق العمل :

-وهل سيتم تغطية تكلفة التجربة من أموال الشركة ،

ردّ المدير وهو يزم على شفتيه :

-"لم يكن ذلك جزء من الاتفاق ، لقد طلبتُ مشروعا متكاملا ، مدروسا وشاملا النتائج ، ولم يكن التجريب متضمنا في العقد ، اقرأ شروط العقد جيدا ، عليك أن تبحث عن ممول للمشروع بنفسك .

لملم والدي الأوراق المبعثرة حوله ، بينما لم يهتم أحد بتهنئته أو شكره على تلك الفكرة المثيرة ، كان الوضع أشبه بتعنيف مجرم من تهنئة عالم متميز ، لقد خرجوا وعلى وجههم ابتسامة صفراء ترسل له رسالة غير مكتوبة مفادها (سنرى نهاية هذه الأحلام) .

لقد شعر بغصة في داخله وألما لا يعلم مصدره ، هل هو بسبب نظرات التحدي التي تحاول النيل منه أم أنه بسبب الفشل في الحصول على الدعم المادي للمشروع ، ربما كان مزيجا من الاثنين معا ، وما زاد الأمر صعوبة ، هي عملية العثور على ممول يقبل بأن يحوّل سطح مبناه إلى حقل تجارب ، فكيف سيعثر عليه ؟

14

السوق الخالي

لم يكن مزاج والدي جيدا في الأيام التالية ، فقد كان يخرج من الصباح ولا يعود إلا في المساء ، لقد حاولنا جهدنا مساعدته إلا أننا لم نستطع ، فما يطلبه أمر يستحيل على أمثالنا توفيره ، كان مشروعا ضخما ومكلفا ، ولم يجد والدي ممولا يقبل بمشروع زراعي فوق مبناه لقد بحث طوال ثلاثة أسابيع لكن الجميع بدا متخوفا من الفكرة ، وكان لخوفهم مبرر منطقي ، فأقل تسريب في نظام التروية والمياه على المزارع القابعة فوق السطوح قد يلحق أضرارا بالغة بالأساسات التي قد تتضرر من المياه وتضعف مما يسبب خطورة على تماسك المبنى بأكمله ، ولم تجدِ الضمانات التي قدمها والدي حول كفاءة نظام التروية الذي صممه في دفعهم لقبول الفكرة وبدا أن تطبيق المشروع أمر مستحيل .

كان لا بد لي من عمل شيء ما ، فاستشرت أصدقائي في مشروع العلوم ، فاقترح الجميع تصميم ملصقات دعائية وتصاميم مبدعة لنشرها على الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي تخدم الفكرة وتوضح ميزاتها الكثيرة ، كان الجميع متحمسا ، فبدأنا بالتصميم والرسم والتخطيط ، والطباعة ، وأخذنا نمر على الشركات والأبنية والمصانع والمباني الكثيرة ، استغرقنا وقتا طويلا وجهدا كبيرا على أمل أنْ نتلقى اتصالا من أحد ، لكن الوقت يمضي دون أنْ تظهر بوادر انفراج قريبة .

كانت الملصقات التي نقدمها للمارة وأصحاب المباني تلقى في القمامة مباشرة بعد مغادرتنا ، بدت الفكرة بالنسبة إليهم مجازفة أكثر منها تجربة ، لكنّ بارقة أمل علت في الأفق عندما اتصلتْ بنا سكرتيرة مدير عام لأحد مراكز التسوق في المدينة تطلبه للقاء مدير المركز ، عندها طار والدي من الفرح ، فحمل أوراقه وتوجه كالريح إلى العنوان المحدد .

كان السوق كبيرا جدا ، ويمتد على مساحة واسعة وسط المدينة ، وكان مكتب المدير يقع في الطابق الأخير ، وما أنْ دخل والدي إلى السوق حتى دهش بأنه فارغ تماما من الزائرين أو المتسوقين ، كان منظره لا يبشر بالخير ، فوجود سوق فارغ في مدينة مكتظة بالسكان ، يضع احتمالا كبيرا من أنّ السوق يعاني من مشكلة ما .

استقبله المدير بالترحاب ، بعد أنْ عرض عليه المخططات التي أعجب بها ، لكنه كان أكثر صدقا معه ، فقال له :

- إن السوق يعاني من تدني المبيعات ، وقلة الزبائن ، لقد حاولنا بكل الطرق جذب المتسوقين لكننا لم نكن نفعل سوى خسارة المزيد من الأموال في الدعاية التي بلا فائدة ، فالسوق كما ترى في مكان مزدحم جدا ، ورغم ذلك لا أحد يقصده .

قال والدي بهدوء :

- وهل تعرفون سبب عزوف المتسوقين عن المجيء إلى هذا السوق ؟

ردّ المدير وهو ينظر من نافذة مكتبه :

- نعم ، المنافسة قوية جدا ، فالسوق قديم نوعا ما ، والأسواق الجديدة التي فتحت في الجوار تجذب الناس إليها أكثر بسبب حداثتها وطرازها الأنيق ، وبالرغم من المبالغ الطائلة التي صرفت على التجديد في التصميم الداخلي والخارجي ، لم نجد الإقبال المطلوب ، لذا أتمنى أنْ تكون فكرة الزراعة على السطوح مفيدة في جذب الزبائن .

كان والدي حينها غارق في التفكير ، لقد وجد نفسه محصورا أمام خيارين كلاهما يطلب منه أن يبرهن أن فكرته ناجحة ، فإن نجح في إثبات الأثر البيئي الفعال للسطوح الخضراء وأرضى مدير شركته الزراعية المحافظة للبيئة ، فلا يمكنه أن يضمن إقبال الزبائن على التسوق في هذا السوق .

كما أنه لا يستطيع أن يخدع أحد لمجرد تحقيق رغبته وإنقاذ نفسه ، بدا حائرا في الأمر ، وكان عليه أن يختار ، ما بين أن يفصل من الشركة لأنه لم يعثر على ممول ، أو القبول مع احتمال أن يخذل الشخص الوحيد الذي تكرم بالسماح له بتطبيق المشروع على سطح مبناه المكون من سوق ضخم قديم من عدة طوابق .

ومع صمته الطويل شعر أن المدير بدأ يشعر بالقلق لأنه بدا غير واثق من مشروعه ، لكنه قال بحزم وقد تنبه لأمر هام أثناء شرائه للخضار من الأسواق المحلية والكبيرة :

- سنركز في مزارعنا على الزراعة العضوية .

قال المدير متسائلا :

- وما هي الزراعة العضوية ؟

- إنها الزراعة التي تستخدم أسمدة عضوية خالية من المواد الكيماوية الضارة للصحة .

- وكيف ستجذب الزراعة العضوية الزبائن .

- إنها زراعة آمنة ، ومنتجاتها خالية من الكيماويات ، الجميع يحرص أن يتناول طعاما يثق أنه لن يتسبب له بمشكلات صحية في المستقبل ، وتلك ستكون النقطة التي ستميزنا ، فلا يوجد حولك منافسين ، لقد تجولت في الأسواق كلها ولم أجد من يبيع خضارا زرعت بطريقة عضوية .

ابتسم المدير ابتسامة الرضا ، وبدا أنه مقتنع بتلك الفكرة الجديدة التي لم يسمع عنها الكثير من سكان المدن رغم أنها أمر بديهي في الريف ، وما كان عليه حينها سوى التركيز على الدعاية القوية لنشر الفكرة ،وإقناع الناس بفائدتها .

15
تنفيذ المشروع

في المطبخ كان والدي يضع عدة أوعية من الرمل على الميزان بعد أنْ يقوم بسكب كمية من الماء عليها .. ثم يزيل جزءا منه ويعيد وضعه على الميزان بشكل متكرر ، قلتُ متسائلا :

- ماذا تفعل يا أبي ؟

قال وهو يعيد تفريغ بعض الأوعية :

- لايمكنني زراعة السطوح بهذه الرمال ، إنّ وزنها ثقيل ولن تتحمل أساسات الأبنية ذلك ، أحتاج لشيء مختلف .

قلتُ بحماس :

- القطن ، كنا نزرع بذور الفاصلوياء على قطن مبلل

نظر والدي إلي باهتمام ، ثم قال :

- بالطبع ، من قال أنني بحاجة إلى الرمل لينمو النبات ، قد أجد بديلا للرمل .

- لكنك ستحتاج لكمية كبيرة من القطن .

ضحك والدي ثم قال :

- لن أستخدم القطن يابني ، لقد تعودت أن أزرع النباتات في الرمل لأنه كان متوفرا في الريف ، لكنني الآن بحاجة إلى التفكير مثل رواد الفضاء ، لا كمزارع في الريف .

قلتُ بتعجبا :

- رواد الفضاء ؟!

رد والدي بحماس :

- إنهم لايزرعون في التراب ، وكذلك سأفعل أنا .

قبلني والدي ثم قال :

-كأنك نصف عقلي الآخر يا مروان .

التمعت عياناي بألق ثم قلتْ :

-كل ذلك بسبب القطن .

- لا ، بل بسبب أنك لا تتوقف عن المحاولة مهما بدت الأفكار غريبة ومستحيلة .

كنت سعيدا برأي والدي الصريح عني ، ووددتُ أنْ يتمكن جميع أصدقائي من سماع ذلك ، فلا أحد منا يعلم متى ستكون أفكاره البسيطة ، إلهاما مفاجئا للآخريين ؟

استعان والدي بخبراء ومهندسين أجروا بحوثا على مواد مختلفة تصلح للزراعة ، كانت تلك الأبحاث موجهة لتمكين رواد الفضاء من الزراعة في الفضاء عندما يكون توفر التربة الصالحة للزراعة مستحيلا ، فاستطاع أن يحصل من تلك الأبحاث على مواد خفيفة يمكن الزراعة عليها أساسها التربة المصنعة خصيصا لهذا النوع من الزراعة وهي تربة خفيفة جدا وغنية بالمواد اللازمة لتغذية النباتات كما أنّ قدرتها على حفظ الماء تبلغ عشرة أضعاف التربة العادية ، التي كانت تزن طنا لكل متر مربع ، وهو ما كان يشكل وزنا زائدا على الأبنية التي لا تتحمل كل ذلك الحمل الكبير .

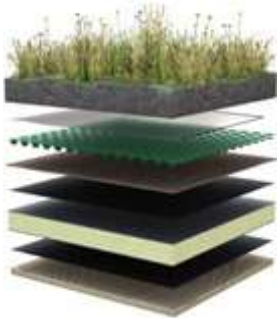

كما قام والدي بتصميم نظام الري وأضاف خزانات لحفظ مياه المطر ، والمياه الزائدة من عملية الري بالتنقيط والمياه الرمادية ، و كان أهم جزء في المشروع الذي يمثل الابتكار الكبير هي الأفرشة المصنوعة من إعادة تدوير (البولي إيثرين) ، والتي تسمح بالاحتفاظ بالمياه وعدم تسريبها على الأرض مما شكل درعا حاميا ضد التسريب .

وساعد على تعميق التربة حتى عشر سنتيمترات ، وهو ما لم يكن متاحا قبل الآن مما سمح بزراعة أنواع مختلفة من المنتجات الزراعية المختلفة كالخيار والأرز والطماطم والخس وحتى الجزر والبطاطس التي تحتاج إلى عمق في التربة والكثير من الخضراوات الورقية .

كما استعان والدي بمولدات تعمل بالطاقة الشمسية لتشغيل مضخات الماء ، وأخيرا انتهى من المشروع ، وزرع الحبوب والشتلات التي اختارها بعناية ، بعد أن درس السوق وعرف احتياجات المنطقة والسكان ، وخلال أيام العمل كان والدي متحمسا ، ولم يتسلل إليه الخوف أو اليأس ، فقد صمم كل شيء بدقة وإتقان ولم يتبق عليه سوى

الإعلان عن المشروع ، وقد طلب مني أن أتولى مع أصدقائي تلك المهمة بالترويج لها في مواقع التواصل الاجتماعي ، بالإضافة لشركة الدعاية والإعلان المتخصصة التي استعان بها .

كان عملنا يقتضي تعريف الناس بالمشروع ، فصممنا الملصقات تحت شعار الزراعة العضوية ، وهي الزراعة الخالية من الكيماويات أو المبيدات ، أو أي ملوثات أخرى ، وهذا بالتحديد ما يفتقر إليه العالم ، خاصة أن الكثير من الناس يعانون من حساسية مفرطة تجاه المنتجات الزراعية الغيرعضوية ، ويبحثون عن بدائل لها ، مثل الزراعة الطبيعية بمياه الأمطار والسماد الطبيعي بلا ملوثات في التربة .

فالمواد السامة الموجودة في المبيدات والأسمدة الكيماوية ما إنْ تدخل أجسادنا حتى تفعل فيها الأعاجيب وتسبب الكثير من الأمراض بسبب احتوائها على الكثير من المعادن الثقيلة كالزئبق والرصاص الذي يترسب في الكلى والكبد ويسبب تلفها على مرّ السنوات ، فيتعطل عمل الأنظمة العصبية والخلايا المختلفة في الجسم ، لذا ركزنا على تلك النقطة في حملتنا الدعائية التي أخذت تجذب الناس إلينا كالجراد .

كان المكان أشبه بسوق للخضار منه إلى حديقة غنّاء ، لقد وجد الناس متعتة حقيقية في قطف الثمار بأنفسهم ، ففي المدينة لا تتسنى لهم تلك المغامرة التي كنا نعتبرها في الريف من الأمور الروتينية التي نمارسها كل يوم .

لقد ساهمتْ السطوح الخضراء في توفير الخضروات لسكان المدينة طوال العام ، بالإضافة إلى وصولها للمستهلكين طازجة دائما مما يقلل من استهلاك الطاقة اللازمة للتبريد .

لقد أصبح الناس أكثر وعيا بأهمية الحفاظ على البيئة ، فتراهم يحملون الأكياس التي يعاد استخدامها ثانية ويقومون بملئها بالخضار والفواكه التي يحبونها من تلك المزارع ، للتخفيف من استهلاك الأكياس البلاستيكية ، التي تسبب مخاطر جمة على الحياة الحيوانية والنباتية ، ويكون ذلك بملء إرادتهم .

لقد دهشتُ عندما علمتُ أنّ بعض البلدان تفرض مبالغ مالية على أكياس البلاستيك لتقليل استهلاكها وتشجيع الناس على إحضار أكياسهم معهم بينما بعض البلدان تقدمها بالمجان وهو ما يجعل من الصعب التخلص من تلك العادة .

كما تعمل بعض مراكز الأبحاث على تصنيع أكياس قابلة للتحلل في البيئة ولا تدوم مئات السنين كالأكياس الحالية .

قد لا يشعر سكان المدن بمدى سوء تلك الأكياس على البيئة ، لكنني كنتُ أراها وهي تتراكم في مزارعنا وتخنق النباتات الصغيرة وتمنعها من النمو والتنفس ، بالإضافة إلى الحيوانات التي كانت تبتلعها إذا ما وجدت بداخلها بعض الطعام لتختنق وتموت بعد عدة أيام .

وجدتْ فكرة الزراعة العضوية العديد من الأنصار لها في المدينة ، حتى أنهم طلبوا تأجير مساحات محددة في تلك الأسطح ، ليتسنى لهم زراعة النباتات الخاصة بهم .

إلى جانب الزراعة خصص والدي جزءا من المساحة لتربية النحل الذي يساعد على التلقيح و ينتج العسل الطبيعي النقي في آن واحد ، ثم يتم بيع العسل الناتج للمتسوقين والمخابز التي تصنع منه حلوى شهية ، ولمراكز علاج الطب البديل التي تستخدم الأعشاب والعسل كدواء نافع للعديد من الأمراض التي تتجاوب مع خصائص العسل المذهلة في الشفاء .

وفي زاوية مغطاة بالزجاج تم تخصيصها لزراعة الزهور النادرة التي تباع لمحلات الزهور القريبة ،حيث يقومون بحجزها مسبقا لأنها كانت أرخص من الأنواع المستوردة باهظة الثمن ، ولها ميزة أخرى أنها أكثر نضارة ورائحتها نفاذة وزكية ، لأنها تزرع بأسمدة عضوية طبيعية بالإضافة أنها تقلل من استخدام وسائل النقل التي تحرق مزيدا من الوقود عبر نقلها آلاف الكيلومترات عبر البلاد .

ولم تكن المطاعم الموجودة في السوق بعيدة عن الحدث ، فقد طلبت الكثير من المطاعم كميات من الخضار الطازجة العضوية الخالية من الكيماويات ، وقد وضعت ملصقات على مداخلها مع عبارة (منتجات عضوية) مما دفع الكثير من الأشخاص الذين يعانون من أمراض التحسس و الذين يحرصون على سلامتهم إلى تناول طعامهم في في تلك المطاعم التي كانت خالية يوما ما ، لدرجة أصبح معه الانتظار في صف طويل خارج المطعم ريثما يتوفر مقعد شاغر أمر بديهي ومتكرر كل يوم خاصة في فترة الغداء ، فالسوق قريب من مجمعات شركات عالمية مزدحمة بالموظفين .

حتى طلبات الحفلات في آخر الأسبوع صارت المطاعم تعتذر عن قبول الكثير منها بسبب ازدحام العمل وكثرة الطلب ، لدرجة جعلت بعض أصحاب المطاعم مجبرين على زيادة عدد الموظفين ، وتوسيع حجم المطعم ، وقد درّت هذه المشاريع أموالا كثيرة ، وجلبت الحياة إلى السوق الذي كان يشكو من قلة الزبائن .

فارتفعت إيراداته مع انتعاش الحياة فيه ، وبذلك حقق والدي الهدف الذي كان يسعى إليه ، والآن جاء دور التحدي الحقيقي ، وهو موافقة شركة (تخضير) على المشروع النهائي ، فهل سترضيهم النتائج التي حصل عليها والدي من خلال تلك التجربة ؟ هذا ماشغل والدي طوال الأيام التالية وجعلنا في حالة ترقب دائم .

16

جزيرة الحرارة

كان الجميع حاضرا ، فقد أثار ما سمعوه عن فكرة الزراعة على سطوح الأبنية فضولهم لمعرفة المزيد ، كانت الجرائد تتكلم حول تلك الظاهرة الجديدة ، ووسائل الإعلام المرئية تعرض في أخبارها آخر المستجدات ، لقد تلقى والدي الكثير من العروض لعمل مشاريع مماثلة في أسواق أخرى ، لكنه لم يكن يفكر في الربح المادي لأنّ لديه التزاما تجاه البيئة يتوجب عليه الوفاء به .

عليه أن يثبت أن الحياة الخضراء ليست مجرد أرباح مادية ، إنها جزء منا ، لا يمكننا الحياة دونها ، والحفاظ عليها وتنميتها يعني الحفاظ على أنفسنا ، عليه أن يبرهن للعالم أن الحياة الخضراء على سطوح أبنيتنا تعود بالحياة إلى طبيعتها ، وتصلح ما أفسدته يد الإنسان ، وآلاته التي غزت كل بقعة في حياتنا ، لتنفث سمومها وتلوث الهواء .

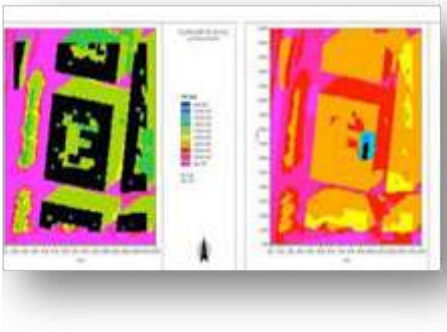

عرض والدي في بداية العرض صورتين لنفس البقعة من البناية ، تظهر الأولى درجة حرارة السطح بالأشعة الحرارية وهي ملتهبة وتصل لدرجة الاحمرار وذلك لعدم وجود سطح أخضر عليه ، وتظهر الثانية نفس المنطقة بعد وضع السطح الأخضر عليها كيف تقلصت الحرارة فيه وانخفضت إلى درجات غير معقولة تصل إلى 70% من الحرارة الأساسية للمبنى ، كان هدف والدي من ذلك أن يبرهن أن تلك السطوح تخفف من ظاهرة (جزيرة الحرارة) المعروفة في المدن ، والتي تتسبب في ارتفاع الحرارة إلى درجات عالية تصل إلى خمس درجات مئوية عن المعدل الطبيعي وهو ما يجعل المدن أكثر حرارة من الريف بسبب الجدران الاسمنتية التي تمتص الحرارة من الشمس وتحتفظ بها لفترات طويلة وهذا بدوره سيخفض من كلفة تبريد المباني التي تستهلك طاقة مضاعفة ، مما سيوفر المال والطاقة للجميع ، كما سيوفر المشروع المياه المهدرة من الأمطار والمياه الرمادية التي لا يتم الاستفادة منها ويقذف بها ثانية إلى البحر .

وقد ذهل الجميع من النتائج التي توصل إليها حول تأثير السطوح الخضراء على المدن ، خاصة النقطة التي تطرق فيها إلى إطالة عمر المبنى إلى خمسين سنة بدلا من ثلاثين

سنة حيث تعمل السطوح الخضراء كعازل طبيعي لحرارة الشمس التي تسبب تشقق الخرسانات وتلفها على سطح المبنى .

بالإضافة إلى ذلك لم ينس الجانب الترفيهي ، حيث يمكن للسكان الاسترخاء مع أطفالهم في تلك الحدائق بعد تسويرها بأسوار حامية تضمن سلامة الجميع و أمنهم وتوفر لهم متنفسا لقضاء وقت الفراغ والعطلات .

أما الملف الأخير الذي أراد عرضه ، والذي دعا لبدء كل ذلك المشروع وجاء من اجله من الريف فهو التقليل من الانبعاث الحراري وتقليل نسبة ثاني أكسيد الكربون في الجو ، كان عليه أنْ يثبت أن السطوح الخضراء تساهم في تقليل التلوث ، بسبب امتصاصها لغاز ثاني أكسيد الكربون وإطلاقها للأكسجين ، وكلما زادت السطوح الخضراء زادت نسبة الأكسجين المنتشر في الجو .

أراد أن يثبت أن السطوح الخضراء تعمل كفلاتر ضخمة لتنقية الهواء ، وقدم تصورا مستقبليا لشكل المدينة الخضراء ، فلو أن كل مبنى التزم بزراعة السطح بغطاء أخضر فسوف يساهم الجميع في حل هذه المشكلة ، وسيقوم كل مبنى بتأدية دوره في خفض انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون الملوث للهواء ، والذي يتسبب بأمراض خطيرة ومزمنة في الصدر والرئة والدماغ ، وتكلف الدول مبالغ مادية ضخمة مقابل ما يسمى بـ (ضريبة الكربون) وهو المبلغ الذي تدفعه الدول مقابل كل طن من الكربون في الهواء .

ثم ختم عرضه قائلا :

– لن تصدقوا أن هذه الفكرة البسيطة أوحى لي بها ابني مروان ، في مشروع صغير للعلوم ، كما أرغب في شكر صديقه باسل ووالده اللذان قدما الدعم البرمجي وخلايا الطاقة الشمسية التي استفاد منها المشروع كثيرا ، ولن أنسى شكر مدير مركز التسوق الذي وثق بي وأعطاني الضوء الأخضر لإقامة المشروع على سطح مركزه ، وأشكر مدير شركة (تخضير) لإعطائي الفرصة الثانية للتجربة والخطأ .

كان التصفيق مدويا في القاعة الصغيرة التي حشدت عددا كبيرا من المهتمين بالعرض ، ممن رغبوا في تطبيق المشروع في أبنيتهم ، أو معرفة المزيد عن التقنيات التي استخدمت فيه ، ولم يكن مدير والدي عابسا هذه المرة ، فقد أحاطت به وسائل الإعلام وتلقى

العديد من الاتصالات التي ترغب في التعاون معه ، حيث كان هدف هذه الشركات إظهار مدى التزامها هي الأخرى تجاه البيئة ، وهذا ما يرضي الناس ويجعلهم يقبلون على طلب خدماتهم ، أي أن الهدف كان دعائيا أكثر منه بيئيا ، وهو ما جعل ذلك المشروع يتصدر عناوين الصحف والجرائد المحلية والعالمية ، ومع اجتماع المصالح ، وجد المشروع طريقه إلى النور ، والانتشار السريع ، بعد أن طالب سكان الأبنية السكنية المجاورة بإنشاء حدائق مماثلة في سطح كل مبنى بغرض الترفيه والترويح في مدينة تغلب عليها التقانة والآلات .

بل إنّ البعض ذهب أبعد من مجرد زراعة رفوف خضراء على أسطح المباني ، فقد فكر البعض في الزراعة العمودية حيث تغطى الأبنية بالكامل بسطوح خضراء لها فوائد الوشاح الأخضر ولا تفتقر إلى الجمال الهندسي والتصميم المبدع ، لكنها تحتاج لتقنيات معقدة لإمكانية تطبيقها خاصة أنّ النباتات ستكون في وضع عمودي مع الجاذبية .

17

مشروع قومي

في الأيام التالية كان والدي غارق في الكم الهائل من الطلبات التي كانت تصله بكل طرق التواصل ، بغرض إنشاء المزيد من تلك الأبنية الخضراء ، وما بدأ كمشروع فردي ،أصبح مشروعا قوميا ، تنفق عليه الحكومات والشركات آلاف الأموال بعد النجاح الكبير الذي حققه في محاربة مشكلات التلوث في المدن المزدحمة والترفيه عن الناس والتخفيف من كآبة المدينة الإسمنتية ببعث روح الطبيعة فيها ، وقد تفنن المهندسون بتصميم أبنية ذات طابع أخضر مع الحرص على الجمال الخارجي والألوان ، مما جعله أكثر مشروع حديث أثار ضجة ولقي استحسانا ونجاحا على مستوى العالم المتقدم .

لقد حقق والدي حلمه بجعل المدينة مكانا يشبه الريف الذي عاش فيه ، بعد أن بدت الفكرة في بادئ الأمر سخيفة ومستحيلة ، وتحولت الأفواه التي كانت تطلق عبارات السخرية والاستهزاء إلى أفواه تطلق عبارات المديح والثناء ، لقد برهن والدي للجميع أنّ بإمكان التقانة والتطور أن تدخل حياتنا دون أنْ تجبرنا على التخلي عن عناصر الحياة التي هي جزء منا كالتراب والماء والهواء ، لأننا في هذا الكون نعيش في تكامل وتبادل للمنفعة بين كل ما حولنا ، ولو اكتفينا بالأخذ من هذه المكونات دون العطاء لفقد العالم توازنه مما ينبئ بكارثة تجر عواقبها على الجميع ، وتنتهي بفناء الحياة على الأرض .

ومع تحسن أوضاع المدينة ، عاد بصيص من الأمل بتحسن أحوال الريف ، لأن الجميع بدأ يستشعر الخطر المحدق بهم ، ففتحت تلك الخطوات الصغيرة التي بدأها والدي الباب نحو ابتكارات خضراء كثيرة ، ربما كانت في المقام الأول تجارة مربحة للعديد من أصحاب الشركات المنتجة ، لكنها في ذات الوقت تخدم البيئة التي كانت تحتضر .

ولم يقتصر الأمر على زراعة المدن بالغطاء الأخضر ، بل إن ذلك التوجه الأخضر نبه الناس إلى ضرورة البحث عن بدائل أخرى للوقود الأحفوري الذي ينتج تلك الكميات الهائلة من الدخان والتلوث الذي كان يتركهم مرضى يعانون بصمت ، حتى استحدثت

الحافلات الكهربائية وتلك التي تعمل بالغاز وقلل الناس من استخدامهم للسيارات واستبدلوها بالدراجات التي أصبح لها مسارات خاصة في الشوراع ، أو المشي إلى مكان العمل إذا كان قريبا ويمكن الوصول إليه دون الحاجة إلى السيارة .

من الصعب أن تعيش في مدينة يُجبر أهلها على استخدام مصابيح السيارات للرؤية في النهار بسبب الدخان الضبابي الذي يحجب الرؤية ويسبب الأمراض ، وهذا ما حدث تماما في مدينة (تشاتانوغا) في ولاية (تنسي) في السبعينيات ، وهذا ما كان سيحدث لنا إن استمرينا في تجاهل تلك المشكلة الخطيرة التي أوجدنا لها حلولا خضراء ، مع تعاون جميع سكان المدينة .

18

الماء .. ثم الماء

في الصباح كنت عالقا في الحمام ، قالت والدتي وهي تناولني إبريقا من الماء :

- إنها المرة العاشرة التي تنقطع فيها المياه ! هل سيستمر الوضع هكذا ؟!

كانت المدينة تستهلك ملايين الجالونات من المياه ، و تعاني من انقطاع للماء في بعض الأحيان ، وهذا ما أقلق والدي الذي شعر أنّ المدينة على وشك أن تعاني من نقص في المياه مثلما حدث في الريف ، فهل سيترك الناس مدينتهم مثلما فعلنا بعد أنْ يجدوا أنفسهم عاجزين عن توفير الماء اللازم للحياة ؟

قد يكون الرد بديهيا في المدن التي تنعم بالأنهار التي تجري حولها ، أو البحيرات الكبيرة التي تكون على مقربة منها ، فأينما وجد الماء وجدت الحضارة ، لكنك لن تجد الرد سهلا عندما تعلم أنّ المدينة التي انتقلنا إليها لا تملك أي مصدر دائم للمياه ، وتعتمد بالدرجة الأولى على تحلية مياه البحر التي يظن الكثيرين أنه لا يكلف شيئا .

لكن الواقع يكشف عكس ذلك ، فمقدار ما يتم صرفه على تحلية جالون واحد من المياه ، يبلغ أربعة أضعاف ما يتم صرفه على استخراج جالون من النفط ، وهي نسبة خطيرة لا تتفق مع مبدأ الاستدامة ، كما أن عملية تحلية المياه تنتج منتجا ثانويا قاتلا وهو تركيب سام لمحلول ملحي مركز ممزوج بمعادن كيميائية سامة وثقيلة ، فمقابل تحلية لتر واحد من الماء يجري إعادة لتر من هذه السموم إلى البحر ثانية ، مما ينتج عنه بقعة سوداء ضخمة في البحر ، تشبه بقعة حبر أرجوانية ، مما يشكل خطرا على الأحياء المائية ، والحياة المرجانية ، ويلوث المياه ثانية .

لذا كان على والدي أن يبحث عن حل آخر ، حل لا يسبب كل تلك المشكلات البيئية الخطيرة ويخفض من التكلفة المرتفعة ، ويساهم في ترشيد الماء ، وتقليل الهدر في مدينة تستهلك ربع الإنتاج العالمي من مياه التحلية في العالم .

فكان أول مكان قصده هو مركز الكهرباء والماء في المدينة ، حيث رحب به المدير المسئول ، وعرض عليه كل مصادر الماء المتوفرة في المدينة ، وطرق صرفها ، فأذهلته الأرقام والحقائق التي قرأها ، خاصة تلك النقطة التي دارت حول المياه التي يتم سحبها من الريف إلى المدن

هنا تجمدت الدماء في عروقه وقرر أنّ الأمر يحتاج إلى تدخل فوري لإيقاف تلك الممارسات الرهيبة التي ترتكب بحق الأرض .

19

من يملك الماء ؟

جلس والدي حول المائدة مهموما مغموما على غير عادته ، فقد تعودنا أن نراه سعيدا بالعمل الجديد الذي عوضه عن حياة الريف والمزرعة التي اضطر لتركها بسبب قلة الماء وجفاف الآبار التي لم تعد صالحة للزراعة وتربية الماشية حيث يعد الماء فيها مصدر الحياة الأول ، كانت والدتي صامتة هي الأخرى ، لكنني لم أتمكن من تركه ضجرا إلى هذا الحد فقلت لأقطع السكون حولنا :

- ما الذي يعكر صفو يومك يا أبي ؟

تمتم والدي بضع كلمات ثم قال بعد أن زفر بأنفاس طويلة جدا :

- الماء ، الماء ينفد يا بني .

قلتُ متسائلا :

- لا يبدو أن المدينة تعاني من نقص في الماء مثلما حدث في الريف ، إنها قريبة من البحر وتحصل على كميات هائلة من الماء عن طريق تحليتها .

كان الأمر أعقد من أن يشرحه لي والدي بالتفصيل العلمي الدقيق فاكتفى بعرض بعض الأرقام التي أذهلتني ، فقال وهو يريني نماذج من بحوث قام بها حول الماء :

- تستهلك المدينة 800 مليون جالون من المياه في اليوم الواحد ، يأتي معظمها من مياه البحر بعد تحليتها ، والبعض الآخر يتم سحبه من الموارد المتعددة للمياه كالآبار والبحيرات في الريف ، حيث يتم نقل المياه لآلاف الكيلومترات بواسطة الأنابيب إلى المدن و المصانع التي تستهلك كميات كبيرة منه في عمليات التصنيع ، ولو قدرنا الاستهلاك في العام الواحد لوصل إلى مليار جالون من المياه ، وهذه الكمية تكفي لملأ نهر النيل ذهابا وإيابا .

قلتُ باستياء شديد :

- هل تعني أن كل ما عانيناه كان بسبب ممارسات سكان المدن الخاطئة في استهلاك المياه ؟ هل سلبونا ماءنا ؟

رد والدي :

- الماء ليس ملكا لأحد لكنه بحاجة إلى عمليات تقنين لاستخدامه لأننا قد نرحل من هذه المدينة أيضا إن لم نفعل شيئا كما رحلنا عن الريف !

قالت والدتي بشيء من الضيق :

- سيتم استنفاد مخزون المياه العذبة في المدينة خلال الخمسين عاما القادمة إذا استمرت معدلات الاستهلاك الحالية في المدن .

سألتُ والدي :

- وكم يستهلك الفرد من الماء كل يوم ؟

- يصل استهلاك الفرد من المياه كل يوم إلى 500 لتر تقريبا وهو من أعلى المعدلات عالميا .

قالت والدتي بحكم عملها في مجال الصحة :

- إنّ بعض الدول تلقي بمياه المجاري في البحر بلا معالجة ، مما يجعلها محملة بالكيماويات السامة والأدوية والبكتيريا فتصبح البحار ملوثة ، ومن البحار تتم تحلية مياه الشرب ، وهنا تكمن الخطورة .

قلتُ لوالدي الذي كان يقلب الصفحات الكثيرة بين يديه :

- هل يمكن الاستفادة من مياه المجاري بعد معالجتها بدلا من إلقائها في مياه البحر ؟

قاطعتني والدتي قائلة :

- لقد وضع والدك خطة لاستخدام مياه المجاري في ري السطوح الخضراء ، لكنه واجه مشكلة كبيرة في استخدامها للبشر .

غمرني الفضول وقلت متسائلا :

- ماذا ، هل حقا اقترحت ذلك في مشروعك دون أن يعارضه أحد .

قال والدي :

-كان خاضعا للتجريب لذا لم يتم قبوله أو رفضه .

-وما هي المشكلة الكبيرة التي تواجهها الآن ؟

ردّ والدي وقد شعرتُ أن الكلمات تخرج من فمه بتثاقل :

- إنّ أحدث تقنيات تنقية المياه لا يمكنها التخلص من كل تلك الملوثات كالمضادات الحيوية والمواد الكيماوية والمبيدات الحشرية و المنظفات التي تختلط في المياه ، لذا لن تكون بوضعها الحالي صالحة للشرب والطبخ أو الاستحمام والغسيل ، والاستخدام المنزلي .

قلت ببديهية :

- إذا يمكن استخدامها للري فقط ؟

- مياه المجاري تحتاج لمعالجة دقيقة لإعادة استخدامها بشكل آمن، كما أنّ الرائحة النفاذة التي تفوح منها بالرغم من المعالجة تعد مشكلة أخرى .

دفع الحوار الذي دار بيننا ليلة أمس والدي لمزيد من البحث والتقصي ، فقد زار عدة جامعات نشرت لها بحوث كثيرة حول التقنيات الحديثة لتنقية مياه المجاري ومعالجتها ، ولكن أي من هذه المشاريع لم يتم تطبيقها بسبب المعارضين لتلك الفكرة .

فالمدينة لا تزال تحصل على كميات ضخمة من مياه التحلية ، بالإضافة إلى المياه التي تنقل من الريف خلال أنابيب يصل طولها إلى آلاف الكيلومترات ،فلم تكن هناك حاجة ملحة لتطبيق تلك الفكرة التي يجدها الكثير من الناس مثيرة للاشمئزاز .

لكن الحاجة لإيجاد موارد مائية بديلة أصبحت ملحة ، فالكوكب يجف ، واستنزاف المياه بتلك السرعة ينبئ بكارثة مائية وشيكة ، خاصة أن تلك المياه المسحوبة والمستهلكة لا يتم تعويضها من الطبيعة بسبب قلة الأمطار .

20

أرقام خيالية

مع زملائي الخمسة قررنا أنْ يكون مشروع العلوم القادم عن أزمة المياه العالمية .

لقد عثرتُ على العديد من الكتب والمواقع الصديقة للبيئة وأوراق عمل مؤتمرات (اليوم العالمي للماء) وبحوث العلماء التي تدور حول الماء ومصادره ، وكلها تحذر من كارثة مستقبلية ، وأزمة مائية خطيرة خلال السنوات العشرين القادمة مع تلك المعدلات العالية من الاستهلاك .

بل إن البعض كان أكثر تشاؤما حين قال أنّ الحرب القادمة ستكون حول مصادر المياه النظيفة ، ليس بغرض الاستفادة منها ، لكن بغرض ظهور تجارة الماء النظيف بعد أنْ لوثت حياة المدينة والمصانع والزراعة ، المياه النظيفة من خلال مياه المجاري التي تلقى في البحار والأنهار ، وتكون محملة بكميات من المواد الكيماوية السامة والأدوية والمبيدات المستخدمة في الزراعة .

ومن خلال بحثي تعرفت على العديد من المصطلحات التي أسمع عنها للمرة الأولى ، فتجارة (الماء الافتراضي) تعني المياه التي تستخدم في زراعة المحاصيل ، مما يعني أنه لا يتم تصدير المحاصيل فقط ، لكن يصدّر معها كل المياه التي تستخدم لري تلك المحاصيل ، والتي تستهلك كميات كبيرة من المياه كزراعة الحمضيات .

وهذا لا يناسب الدول التي لا تملك موردا مائيا كافيا ، كما لا تحتسب تلك المياه من جملة تكلفة الإنتاج ، لذا قامت بعض تلك الدول باستئجار مساحات أرضية شاسعة في الدول التي تملك مصادر مياه غنية ، لزراعة المحاصيل التي تستهلك الكثير من المياه ، مما يحافظ على مورد الدولة المائي لكنه يستهلك المخزون المائي النظيف للدول المستضيفه لهذه المزارع الضخمة ، وهو أمر غير مجد إذا لم يتم ترشيد الاستهلاك و تعويض الماء المفقود عن طريق مياه الامطار .

ومع كل تلك الأرقام المخيفة لاستهلاك المياه في العالم في مقابل الجفاف الذي تعاني منه قارات كبيرة كأستراليا والكثير من الدول في النطاق الصحراوي ، تسبب نظم الري القديمة هدرا إضافيا في المياه ، نتيجة تسرب المياه في التربة أو تبخرها .

فإنتاج سلة صغيرة من السلطة يستهلك نحو (300) لتر من الماء ، بينما يستهلك إنتاج كيلو غرام من القمح ألف لتر من الماء ، و إنتاج كيلوغرام من اللحم يستهلك

عشرة أضعاف ما يستهلكه إنتاج القمح ، بينما تحتاج إلى (30) ألف لتر من الماء لإنتاج كيلوغرام واحد من القطن ، وهو مقدار ما يستهلكه الفرد في المدن من ماء في (60) يوم .

كنت أحرص على تدوين تلك الأرقام ومناقشتها مع زملائي الذين ذهلوا مثلي من تلك الحقائق الخطيرة .

إنّ الدراسات الكثيرة لأزمة المياه في العالم رسمت ثلاث مشاهد متوقعة لحصول جفاف متوقع في العالم خلال الخمسين سنة القادمة ، وكل تلك المشاهد لا تدعو إلى التفاؤل ، تى أولئك الذين يملكون مصادر دائمة للمياه كالأنهار ، إن لم توضع قوانين صارمة للحد من تلك الأزمة .

وفي جلسة نقاش مع زملائي كان علي أن أعرض تلك المشاهد بالتفصيل حتى نضع خطة واضحة لاحتياجات المستقبل .

فالكثير من سكان المدن الكبيرة ينعم بالمياه الصالحة للشرب لسهولة الحصول عليه من محطات التحلية والموارد الأخرى التي توفرها الحكومات لسكانها مقابل مبالغ مالية رمزية ، بينما يعاني قاطنو الدول الفقيرة من اضطرارهم لشرب المياه الملوثة التي تسبب ملايين الوفيات سنويا خاصة لدى الأطفال .

فكيف يمكن التقليل من هدر المياه الذي يحدث كل يوم بدءا من غسيل السيارة وانتهاء بملء حوض الاستحمام ، دون أنْ يُرغم المستهلك على اتباع نظام صارم يشعره بالحرمان من الاستمتاع بالمياه ؟!.

21

اختفاء بحيرة

على شرفة تطل على المدينة المزدحمة جلس والدي يتأمل السماء التي كانت تشع بالحياة ، ربما لم تتخلص المدينة من كل تلوثها ، لكنها بدأت تتعافى وتتحسن خاصة مع اللون الأخضر الجميل الذي أخذ يطل من شرفات الأبنية ومن سطوح المباني العالية ، لكنه لم يكن منشغلا بمشروع تخضير السطوح ، بل كان يفكر في الخمسين سنة القادمة من هدر المياه بتلك الطريقة ، لقد كان يراجع بعض الأوراق التي كان يعدها لعرضها في المؤتمر العالمي للمياه ، فسألته بفضول :

- نحن شركاء في هذه المشكلة ، لقد قررت مع زملائي أن يكون محور مشروعنا القادم حول أزمة المياه ، فما هذه المستطيلات الثلاث التي ترسمها ؟

- إنها المشاهد الثلاث التي تنتظر العالم ، بسبب مشكلة المياه .

- لقد اطلعت عليها ، لكنني لا أستطيع فهم بعض الجوانب منها ، هل تجد الوقت ملائما لتشرحها لي بشيء مبسط .

ابتسم والدي وهي يعبث بشعري ، ثم امتلأت عيناه بنظرات الإعجاب وأخذ يتأمل في عيني طويلا قبل أن يقول :

- كنت أراجع تلك المشاهد للتو لأقدمها في المؤتمر العالمي للمياه .

- حسنٌ ، هل تعني أنك ستخبرني ما معنى مشهد ؟

أحضر والدي ورقة فارغة ثم أخذ يرسم فيها بعض الخطوط العريضة وهو يقول :

- كلمة المشهد تعني ، تصورا لأحداث يتوقع حدوثها ، في المستقبل بناء على حقائق ومعلومات وأرقام يتم جمعها ودراستها وتحليلها في الحاضر ، لتعطي تنبؤات دقيقة حول الحياة القادمة التي تنتظرنا .

- تنتظرنا ، ألن يكون المستقبل مشرقا كما أحلم به الآن

رسم والدي على وجهه ابتسامة صفراء ، ثم قال :

- لدينا الخيار لنتغير ونغير ما ينتظرنا في المستقبل ، نحن دائما نملك القرار ، لكن

العمل الفردي لا يجدي نفعا ، علينا أنْ نعمل جميعا لمواجهة تلك الكارثة .

- يا إلاهي !! كارثة حقيقية ؟

عرض والدي عليّ بعض الصور لبحيرة كبيرة جدا ثم عرض صورا أخرى لبحيرة أصغر حجما ثم قال :

- هذه الصور تمثل نفس البحيرة ، لكن يفصل بينهما مئة عام فقط .

قلت بذهول :

- إنها تجف !

قال بشيء من الأسى :

- هل سمعت عن بحيرة (أورال) في حصص الجغرافيا .

حاولت ان اتذكر لكنني قلت على عجل :

- لا !

- لن تسمع عنها ثانية لأنها لم تعد موجودة ، فقد جفت منذ زمن بعيد بسبب عمليات تحويل المياه .

- كل هذه البحيرة الهائلة ، لم تعد موجودة .

- إنها رابع أكبر بحيرة في العالم لقد جفت تماما ، وهل تعرف من الذي يسكن تلك المنطقة الشاسعة الآن لبحر الاورال .

- حيوانات مفترسة .

ابتسم والدي رغما عنه ثم قال :

- بل الفئران ، وهي هناك بالآلاف .

- كم هو مخيف أن تتكاثر الفئران بتلك الكميات الهائلة هل يعني ذلك ما أفكر به ، من انتشار ، مرض الطاعون ، أليس ذلك ما تنشره الفئران .

قال ولدي وهو يرى الهلع يظهر على وجهي بوضوح :

- لا تخف يا بني ، لقد تنبهت الدولة إلى خطورة الوضع وقامت بحملات لتطهير تلك المنطقة دون التسبب في قتل تلك الفئران ، فهي تشكل غذاء هاما للصقور والطيور الجارحة التي تسكن تلك المناطق ، لكن عمليات التطهير تقتل (برغوث الرمل) الذي يعيش على جسدها ويتغذى من دمها ، وينتقل منه إلى الإنسان ، وهنا مكمن الخطر .

قلت بحماس :

- لذلك تم تسميم الفئران في أوربا عندما مات الملايين بالطاعون الأسود وحرقت الفئران وجثث المرضى لمنع انتقال العدوى .

قال والدي :

- أحسنت ، لكنهم قلقين مثلنا من احتمال انتقال مرض الطاعون إذا ما أهملوا عمليات التطهير يوما أو لم يكونوا قادرين على استمرارها ، أو أن ينقل أحدهم المرض متعمدا كنوع من الحروب البيولوجية ضد الأبرياء .

كانت أنفاسي تتسارع كمرجل يغلي وأنا أتخيل مشهد ملايين الناس الموتى بسبب استيقاظ مرض قاتل مثل الطاعون الذي تسبب في موت(50) مليون شخص في أوروبا وحدها في القرن السادس عشر ، قلت متسائلا :

- وهل وجدوا حقا دلائل على وجود المرض هناك .

صمت والدي برهة كأنه متردد في إخباري ثم قال :

- لقد عثروا عليه في بعض العينات العشوائية التي يتم جمعها من الفئران ، لكنها لم تكن منتشرة كفاية ليطلق على المرض اسم وباء ، لازالوا يسيطرون على الوضع .

قلت باهتمام بدا ظاهر على وجهي :

- لقد اختل توازن البيئة بعد اختفاء البحيرة فظهرت تلك الآفة التي كانت نائمة طوال مئات السنين .

- نعم يا بني ، إنها آفة تنهض كوحش كاسر ، وقد يظهر مثلها المزيد في أي مكان آخر في العالم إذا ما تعرضت بحيرات أخرى لجفاف مماثل .

تخيلتُ البحيرة الكبيرة التي كانت تعج بالحياة يوما ثم قلتُ لوالدي :

– لا يمكن أنْ نُبقي كل تلك المعلومات الخطيرة لأنفسنا ، علينا ان ننقلها للعالم ليأخذ الناس حذرهم ويغيروا من عاداتهم اليومية في استعمال الماء .

همس والدي باهتمام :

– هذا ما نعمل عليه الآن ، يابني ، إنها مسألة وقت حتى يستيقظ الجميع مثلنا ، ويدركون الخطر الحقيقي الذي ينتظرنا .

مشاهد تنتظر العالم

لم أنم تلك الليلة وبقيت مستيقظا حتى وقت متأخر من الليل ، لكنني تذكرت أنني لم أسمع تفاصيل المشاهد التي كان والدي على وشك عرضها ، لقد جذبني اختفاء البحيرة وبقيت أسأل عنها طوال الوقت ، لذا نهضت في الصباح الباكر ، ونزلت مسرعا لألحق بوالدي قبل أن يغادر ، فمشروع العلوم كان يعتمد عليه ، قلتُ لوالدتي التي كانت تجلس لوحدها على مائدة الإفطار :

- أين والدي ؟!

أشاحت بيدها ، بينما هي تحدق في التلفاز باهتمام :

- صمتاً ، سيبدأ والدك الآن عرض ورقته في المؤتمر العالمي للماء ، تعال وانظر إليه كم يبدو متحمسا .

جلستُ قرب والدتي محبطا بعد أن ضاعت عليّ فرصة الحصول على شرح مفصل للمشاهد ، لكنني كنت سعيدا بمشاركة والدي في مؤتمر عالمي مماثل ، والأجمل أنه عاش تجربة حية لتلك المشكلة ، بدأت مع انتقالنا المفاجئ من الريف ثم ظهور فكرة السطوح الخضراء ، ومن ثم اكتشاف والدي لنقص المياه في المدينة .

وقف والدي على المنصة بينما لمعت عيناه بشدة وهو يتأمل الحشود الهائلة من الناس التي جاءت للاستماع إليه ، قال متحدثا بعد أن طرح سؤالا غامضا أثار الجميع :

- ما هي المشاهد التي تنظر العالم إذا أصبح كل الماء في العالم ملوثا ، ولم يعد بإمكاننا الحصول على الماء النظيف للشرب !!

قلتُ بحماس :

- أمي إنه مشروع العلوم الذي أعده .

- نعم يابني لقد أخبرني والدتك ، استمع الآن قد يفوتك شيء هام .

قال والدي بصوت مؤثر :

- هناك ثلاث مشاهد تنتظرنا إذا ما وصلنا إلى تلك المرحلة الخطيرة يوما ما .

عرض بعض الصور ثم أكمل قائلا :

- إنها مشاهد مؤلمة ، لكن لابدّ لنا أنْ نعرف ما الذي ينتظرنا حقيقة في المستقبل القريب إذا ما بقيت معدلات استهلاك الماء بتلك الصورة الرهيبة دون تعويض الفاقد منه ، فلنستمع للمشهد الأول لأنه لن يكون مشهدا مفرحا .

قال موضحا :

- المشهد الأول ، يصور العالم وهو يستنفد الماء العذب وهذا ما نفعله نحن الآن ، سيواجه بليونين من البشر خطر الجفاف في البلدان التي تعاني نقصا في موارد المياه لدرجة تدفعها لاستيراد الماء من الدول الأخرى ، فالبشرية تلوث وتستنزف الموارد المائية المحدودة على الأرض بمعدل خطير .

أكمل والدي حديثه فقال :

- إنه أبسط المشاهد ، فالمشهد الثاني يصور كيف سيعيش المزيد من البشر كل يوم دون فرصة استخدام الماء النظيف ، حيث يفوق عدد الأطفال الذين يموتون نتيجة الماء الملوث عدد الأطفال الذين يموتون نتيجة الحروب والملاريا والأيدز والحوادث المرورية مجتمعة ، فبينما يحصل من يملكون المال على المياه النظيفة المعبأة في أي وقت ، لا يحصل من لا يملكونه إلا على المياه الملوثة من الآبار والأنهار المحلية .

قلت لوالدتي متسائلا :

- إذا ، المشكلة لا تتعلق بتوفر المياه فقط ! بل بتوفر المياه النظيفة الصالحة للشرب .

- نعم يابني .

ثم قال والدي وكاميرات التصوير تنقل صورة مقربة جدا لوجهه :

- بسبب تلك الأزمة ينشأ المشهد الثالث الذي يصور كيف تنشأ اتفاقيات دولية كبيرة بين شركات الماء حول العالم ، للسيطرة على كل مظاهر الماء في العالم بهدف تحقيق أرباحها الشخصية ، وتقوم تلك الشركات بوضع كميات هائلة من المياه في قوارير بلاستيكية وتبيعها لنا بأسعار باهظة ، كما تسعى تلك الشركات إلى تطوير تقنيات معقدة لتكرير الماء الملوث ، تقنيات معقدة تكلفتها ضعف تكلفة الماء نفسه ، ويتم نقل المياه من أماكن تجمعها في الريف والأنهار وضخها بكميات هائلة إلى المدن بهدف بيعها أو الاتجار بها في السوق المفتوحة ، مما دعا إلى ظهور (تجارة الماء) وهذا ما حصل في الريف الذي اضطررت لمغادرته مع أسرتي ومع الكثير من جيراني ،

تخيلوا أن يتوقف الريف عن مد المدن بالمنتجات الزراعية التي يحتاجها ، كيف يمكن للمدن أن تستمر ؟؟

تابع والدي حديثه بينما الصمت يخيم على الحضور :

- إنّ تلك المشاهد لا تحدث فجأة بل عليك أن تتخيل العالم خلال الخمسين سنة القادمة إذا لم يحصل تغيير في سياسة الماء الحالية من خلال سن القوانين والأنظمة التي تعيد إلى الطبيعة توازنها .

عرض والدي بعض الشرائح التي تحوي رسومات توضيحية مع أرقام وحقائق :

- وصل عدد سكان العالم إلى سبعة مليارات نسمة عام 2010 فتخيل كمية المياه التي سيحتاجها هذا العدد الهائل من البشر بالإضافة إلى الزراعة والصناعة ، لقد سعت الكثير من الدول إلى إنشاء محطات تحلية تعمل بالطاقة النووية لسد العجز في المياه ، مما سيزيد من تلوث المحيطات ، كما طورت بعض الشركات تقنيات تسمى بـ (النانوتكنولوجي) أو (علم الصغائر) تسعى من خلالها إلى معالجة مياه الصرف الصحي ، لكنها لا تزال تحت التجريب ومخاطرها غير معروفة ، وقد تكون أضرارها أكثر من منافعها .

قلب والدي شرائح العرض ثم قال :

- هناك صراع خفي على الماء في العالم ، حيث تنشيء الدول التي تمر بها الأنهار عددا كبيرا من السدود لحجز الماء مما يؤدي لاحتكار مياه النهر وحرمان الدول الأخرى من حقها في الماء ، كما تشتري الشركات من الدول الفقيرة المياه في مقابل تسديد ديونها ، وهذه الدول الفقيرة لا تملك الماء الكافي لشعبها .

حدقتُ برهة في صنبور المياه ، ثم تذكرت بعض الممارسات السيئة التي كنت أمارسها في استهلاكي للماء ، لقد شعرت بأننا لا نقدر قيمة الماء الذي بين يدينا ، ولا ندرك عظم المشكلة التي نوشك أن نقع فيها إن لم نغير سياستنا الحالية في استهلاك المياه ، إننا نواجه مشكلة خطيرة .

قال والدي وهو يتابع عرض الحقائق :

- في المقابل لا أحد مستعد لتغيير عاداته الحالية في استهلاك الماء من أجل الحد من هدر المياه ، فلو قام المستهلكون بتوفير 1% من استهلاكهم الحالي للماء الذي يقدر بـ

550 لترا (ما يعادل 360 قنينة مياه كبيرة) من المياه في اليوم في أبوظبي وحدها ، لتم توفير 70 مليون درهم سنويا ، وأكثر الاستهلاك المائي يكون من الاستهلاك المنزلي أولا .. هل تصدقون ذلك .. منازلنا تستنفد ماءنا ، ثم المصانع ، تليها المزارع .

لقد بدأت المشكلة من جفاف الريف ، وسرعان ما ستنتقل المشكلة إلى المدن التي ستجد نفسها بلا ماء صالح للشرب يوما ما ، إن استمرت ممارسات سكان المدن على حالها .

تخيل أن تفتح صنبور الماء يوما ، فلا تجد قطرة ماء واحدة ، ربما هذا ما سنواجهه حتما إن لم نتكاتف لحل المشكلة ، ونساهم في التقليل من هدر المياه .

ثم صمت برهة .. فعاود حديثه قائلا :

مازلتُ أذكرُ كلّ شيءٍ عنْ مدينتنا القديمة

عنْ حارتي الرمليّة الصفراء ، و المقل الحزينة
لمّا نُحدّقُ في السماءِ على السطوحْ
نضبتْ جرارُ الماءِ و الغدرانِ مثل يدِ البخيلْ
مَحَلتْ فأمستْ كالقبورْ
مخسوفةً سوداءَ تملؤها الصّخورْ
و على الضّفافِ الغارِقاتِ ..
بالشمس و الرّملِ المُندّى و الضبابْ
وقفَ الصِّحابْ ..
يترقبون (سفينة الماء) التي قالوا تعودْ
بالماءِ منْ نهرِ الشمالْ
فالأرضُ رملٌ و السماءْ
بيضاءَ صافيةً كنهرٍ منْ جليدْ
هيهاتَ أنْ تمطرَ. و يهتفُ مِنْ بعيدْ
نفرٌ يبشّر: أنّ صاريةً تلوح
كهلالِ مئذنةٍ يغلفها الضّبابْ
عبرَ العبابْ ..
و على ظهورِ جمالنا الظّمأى تحجرتْ القراب
سوداءَ فارغةً يغطيها الترابْ
كبطوننا

صلّي إذنْ فالموتُ أقربُ ما يكونْ
و الريحُ أغرقتْ السفينةُ و السماءْ ..

حقدتْ علينا يا أمينة . (من مذكرات بحار ، لمحمد الفايز)

لقد نسينا (سفينة الماء) نسينا كيف كنا نشقى لنجمع الماء .

صفق الجميع بحماس بينما أخذتُ أنا ووالدتي نعانق بعضنا ونهتف لوالدي فخرجتْ أختي على أصوات ضجيجنا متسائلة عما يحدث .. قال والدي كلمته الاخيرة :

- أرجوكم .. (**لا تنسوا سفينة الماء**) التي قد لاتعود .

نظرتْ أختي إلى شاشة التلفاز فرأت والدي يقف أمام جمهورغفير قالت وهي تتناول طعامها :

- إنه والدي ، كم هو وسيم .

توجهتْ لتغسل يدها ثم تركت الصنبور مفتوح ريثما تنتهي من فرك يديها بالصابون ، قالت والدتي معنفة لها :

- أغلقي الصنبور ، ثم أعيدي فتحه ، الأمر لايستغرق سوى ثوان معدودة تهدرين خلالها لترين من الماء .

قالت أختي باندهاش :

- الجميع يفعل ذلك .

قالت أمي بانفعال :

-"ليس بعد اليوم ، سنتذكر كل لحظة المشاهد التي تنتظرنا إذا لم نحسن استخدام الماء .. ولن ننسى سفينة الماء .

وقفتْ أختي محتارة من ردّ فعلنا الغريب ثم قالت :

- ماذا عن حوض السباحة ؟ إننا نملؤه مرة كل شهر.

قالت أمي :

- لن نفعل ذلك ثانية ، سنركب أجهزة تنظيف وتعقيم للمياه القديمة . سنكرر المياه التي تصلح للتكرير .

قالت متسائلة بحيرة :

- ما الذي يحصل هنا ؟!

قلتُ موضحا :

- إننا نسعى إلى الاستدامة .

- الاستدامة !

- أي أننا نسعى إلى الإبقاء على الموارد عند مستوى معين لنتمكن من البقاء .

- إنه مفهوم كبير ، يصلح لعقول العلماء ! لا أزال صغيرة على ذلك .

قلتُ لها :

- لا يحتاج الأمر إلى أن تكوني عالمة لتساهمي في الاستدامة ، لكل فرد دور في الاستدامة حتى لو بدا ضئيلا ، فمثلا يمكنك الحفاظ على الأسماك وتكاثرها من خلال استخدام صابون ومنظفات ومبيدات لا تحتوي على أنواع الفوسفات .

- لقد ظننت أن كل أنواع الصابون والمبيدات تضر بالبيئة .

قالت أمي :

- نعم ، لكن أخطرها هي تلك التي تحتوي على الفوسفات ، لأنها تتسبب في نمو الطحالب التي تقلل الاكسجين في الماء وبالتالي تقتل الأسماك عندما تدخل في نظام المجاري والصرف الصحي ..

قلتُ مضيفا :

- تغطي المياه 70% من مساحة كوكب الأرض ، لكن الخطير أن ما يصلح منه للشرب لايتجاوز الـ (3%) وهي نسبة تدفعنا للتفكير مليا ونحن نسرف في استهلاك الماء ، كما تفعلين أنت الآن .

نظرت أختي إلى الصنبور ثم قالت :

- يبدو أنني بحاجة لتغيير شامل في عاداتي اليومية في استهلاك الماء .

- الآن أصبحتِ تعرفين ، وعليك بالالتزام .

قالت أمي :

- لقد تركنا أرضنا بسبب قلة الماء ، ولانريد أن يترك الناس مدينتهم لذات السبب .

زِرُّ الطوارئ

كان الحل الوحيد لمواجهة المشكلة ، هو استعادة التوازن لدورة المياه في الطبيعة ، ولن يتحقق هذا التوازن إلا بمشاركة جميع الأفراد في المجتمع ، لذا كان أول عمل قمنا به هو محاولة لفت أنظار الناس إلى حجم المشكلة التي ستواجه العالم ، وتواجههم إن استمروا في استهلاك الماء بذلك المعدل كل يوم .

طباعة الأوراق وتوزيعها كانت فكرة روتينية ، فالناس في المدينة لا يملكون الوقت الكافي لقراءتها ، وغالبا ما يلقون بتلك الأوراق في سلة المهملات دون أن ينظروا إليها ، كان يتوجب علينا البحث عن فكرة مبدعة وجديدة وفاعلة ، وغير مكلفة ، وهنا جلسنا حائرين أمام مدينة يبلغ عدد سكانها بالملايين .

قالت رنا :

- سنصنع بالونا كبيرا ، وسنكتب عليه حافظوا على الماء ، الماء ينفد .

رد محمد :

- إنها فكرة قديمة ، الناس تحدق بهواتفهم النقالة وبشاشات الكمبيوتر والتلفاز ولا يكلفون أنفسهم عناء النظر لأعلى لرؤية منطاد يدافع عن المياه المتوفرة بكثرة .

قالت نوران :

- سأكتب مسرحية للأطفال ، و سندعوا الجميع إليها ، ستساعدني أختي قليلا ، فهي بارعة في الكتابة .

رد باسل :

- المسرحية فكرة جميلة وتؤثر في الأطفال لكنها ستصل إلى عدد قليل من الناس ، نريد فكرة تصل إلى أكبر عدد من سكان المدينة وربما العالم .

قال مروان معقبا :

- إنه حلم ، المدينة يسكنها الملايين ، كيف سنصل للجميع ، إنه مجرد مشروع علوم ، يمكننا التواصل مع عدد محدود حولنا .

اشتد الجدال بيننا ، فصار كل واحد يعرض فكرة ما ، ثم يقوم الآخرون بسرد مساوئها ،

فيبحثون عن فكرة جديدة ، حتى عرضنا الكثير منها ، لكننا أخيرا توقفنا عن طرح المزيد ، فأي من الأفكار التي نقترحها لم يكن مجديا ، لأسباب كثيرة ، فبعضها باهظ التكاليف وبعضها مستحيل ، وبعضها لا يحقق انتشارا كافيا ، وبعضها يحتاج لمساعدة الكبار ، والكثير من المشكلات الأخرى فقلت بعد أن ساد الصمت برهة بين الجميع :

- سنقطع المياه من المدينة .

تركت كلماتي تلك في وجوه زملائي وقعا شديدا لدرجة انهم تركوا أفواههم مفتوحة دلالة على العجب ، فكيف يمكن لأطفال صغار مثلنا فعل ذلك ، قال خالد متسائلا :

- ولكن كيف ، ألا تجد الفكرة مستحيلة .

- ربما ، لا نحتاج سوى للوصول إلى محطة توزيع المياه الرئيسية ، وضغط الزر الرئيسي ، عندها ستتوقف المكائن عن ضخ المياه .

أكملت رنا :

- ويستشيط الناس غضبا .

- ويشعرون بأهمية الماء .

- بل لن يشعروا بذلك ، سيظنون أنْ محطة المياه تعاني من أعطال .

- وهنا يأتي دورنا .

- فهمت فهمت ، لكن كيف سنصل إلى زر التشغيل .

قال باسل :

- والد نادين يعمل في محطة الكهرباء .

أجابت نوران :

- نادين تعتبرنا الفريق المنافس لها ، كيف تظنون أنها ستساعدنا ، إنها لا تحب أنْ تساعد أحدا تعرف أنه سيتفوق عليها .

قال باسل بكل ثقة :

- دعوا هذا الأمر لي ، أما أنتم فاستعدوا ليوم العرض .

توجه باسل إلى نادين التي كانت منهمكة في تركيب دارة كهربائية لمشروع العلوم الخاص بها ، قال باسل بلطف :

- نادين ، يبدو أنك تواجهين مشكلة في تركيب الدارة الكهربائية .

- نعم ، هل يمكنك مساعدتي ، فأنت ماهر في ذلك .

- بكل سرور ، لو قبلت مساعدتي في مشروع العلوم.

- أنت تحتاج إلى مساعدة ! إنك ماهر في كل شيء .

- لا أحتاج لتركيب جهاز أو ما شابه ، بل أحتاج أن يسمح لنا والدك بزيارة محطة الماء لنكتب تقريرا عنها ، فكما تعلمين مشروعنا عن المياه .

- ما هذا المشروع ، هل تركت مجال برمجة (الرجل الآلي) ، لتنشغل بأمر المياه ، وما الجديد في أمر المياه ، لايزال الناس يملأون أحواضهم بالماء ، ولم نسمع عن موت أحد عطشا ، ربما عليك أن تراجع تلك الفكرة قد تحصل على درجات متدنية .

رد باسل وقد تجاهل كل ما قالته نادين :

- إنه سر ، لا يمكنني إخبارك بكل شيء وإلا ضاعت المفاجأة ، والآن هل ستخبرين والدك .

- إنه أمر بسيط ، ولا اعتقد أن والدي سيرفض زيارة أصدقائي لمحطة المياه .

فرح باسل بحصوله على الموافقة وأسرع إلى فريقه ليتابع العمل ، كان خالد يجري الاتصالات ، ونوران تعد العرض أما محمد فكتب المنشورات وباسل أعد بطاقات الفريق ، وأنا ساعدت الجميع برسم لافتات تعبر عن مشكلة المياه فانا بارع في الرسم .

انتهينا من العمل ، وتوجهنا إلى مركز المياه في المدينة ، كان والد نادين الأستاذ (سلمان) ينتظرنا عند الاستقبال ليصطحبنا في جولة تعليمية في المحطة ، اكتفينا بحمل الأقلام وآلة التصوير ، وسجلنا كل شيء ، حتى وصلنا إلى مركز التشغيل ، عندها بدأت قلوبنا تخفق بشدة ، قال لنا الأستاذ سلمان :

- من هنا تدار المحطة ، وهذا الزر هو الذي يتحكم بعمل جميع الأجهزة .

قال خالد :

- وماذا يحدث إن ضغط عليه أحد .

رد الأستاذ سلمان :

- هذا الزر عادة للطوارئ ، حيث يوقف ضخ المياه في جميع المحطات الأخرى الفرعية ، وذلك بهدف منع تدفق المياه في حالة التسرب أو التلوث ، وفي غضون دقائق تصبح المدينة بلا ماء .

نظر الجميع إلى بعضهم البعض ، لقد وصلوا أخيرا ، وخلال لحظات سيتمكنون من إتمام المهمة .

غادر الجميع غرفة التحكم الرئيسية ، فاصطحبهم الأستاذ سلمان إلى المطعم لتناول بعض الحلوى قبل المغادرة ، فجلس الجميع على طاولة مستديرة ، وخلال لحظات قرع جرس الإنذار ، صاح الأستاذ سلمان بهلع :

- أظن أنه يتوجب عليكم المغادرة ، تعالوا معي من هذا المخرج ، غريب لم يحصل ذلك من قبل .

اصطحب الأستاذ سلمان الجميع إلى مخرج الطوارئ ، ثم قال بدهشة :

- أين صديقكم السادس ، أنتم خمسة الآن ؟!

صمت الجميع دون تعقيب ، فقال الأستاذ سلمان :

- انتظروني هنا ريثما أعثر عليه ، ربما تاه بين الممرات أثناء خروجنا .

خرج أفراد الفريق مسرعين نحو السيارة التي تنتظرهم في الخارج ، فاخرجوا اللوحات التي صنعوها ، والمنشورات التي طبعوها ، وارتدى محمد زي القطرة الذي أعدته رنا ، ووقفوا على مدخل المحطة يلوحون باللافتات .

في تلك الأثناء حضرت سيارات الصحافة والتلفاز بعد تلقيهم بلاغا من متصل مجهول البارحة عن حدوث مشكلة خطيرة في محطة المياه الرئيسية وأنه يتوجب عليهم الحضور لتغطية الحدث .

لم يعثر الصحفيون على أي مشكلة ، وكل ما وجدوه مجرد أطفال يحملون لافتات تحذر

من مشكلة مائية خطيرة ، عندها قرروا الانصراف ، فقال خالد :

- ألن تلتقطوا لنا الصور .

رد المصور :

- أين الحدث الكبير ؟

- إنه نحن .

استاء المصور ، وهمّ بالانصراف ، لكن الأستاذ سلمان عاد وهو يمسك بي ، وقال غاضبا :

- أنتم طلاب مشاغبون ، لقد أطفأ زميلكم زر التحكم الرئيسي ، وبسببه ستظل المدينة بلا ماء لعدة ساعات

عاد المصور بعد أنْ شعر أن في الأمر خبرا مثيرا فقال وهو يسأل الأستاذ سلمان :

- هل تقصد أن هؤلاء الأطفال قطعوا المياه عن المدينة كلها .

- نعم ، لقد زاروا المحطة في رحلة استكشافية ، لكنهم مشاغبون ، وتسببوا في مشكلة كبيرة .

قال باسل :

- بل إننا نحل مشكلة كبيرة .

- وأي حل في قطع المياه عن مدينة يسكنها الملايين ، لقد تسببت في كارثة كبيرة ، فبعد قليل ستنهال الاتصالات على المحطة معلنة استياءها من الخدمات الرديئة التي نقدمها .

قال الصحفي ماهر :

- إنه خبر ملفت ، صور هؤلاء الأطفال ، وأجري معهم لقاء صحفيا ، لنكتشف سبب قيامهم بكل تلك الفوضى .

قال الصحفي وهو يوجه الأسئلة إلى المجموعة :

- هل أنتم مستاؤون من سعر الماء الحالي ؟

صمت الجميع برهة وهم يحدقون في الصحفي بحيرة ، ما الذي يفعله الكبار ، لا ينحصر تفكيرهم سوى في التكلفة والمال ، ألا يفكرون بقضايا الماء الخطيرة ؟!

قال الأستاذ سلمان مقاطعا :

- عليّ أن أتصل بآبائكم ، فما فعلتموه يعد جريمة ، يعاقب عليها القانون .

شعر الفريق بالخوف والقلق ، لم يكن في نيتهم أنْ تخرج الأمور عن السيطرة ، فظلوا صامتين حتى حضر آباءهم .

كان آباؤنا غاضبين ولم يسمحوا لنا بالكلام ، فقررنا أن نصمت ولا نكلم أحدا منهم ، بينما جميع من حولنا يوجه إلينا عبارات اللوم والعتاب ، وينتظر منا أن نعطي أسبابا مقنعة لما قمنا به ، لكننا بقينا صامتين .

في غرفة مغلقة معدة للاجتماعات جلس كل منا مع والديه اللذيْن بدا على وجهيهما الارتباك والذعر ، فمن كان يتوقع أن تصدر من مجموعة من الطلاب المتفوقين كل تلك الحماقة ، نظر إليّ والدي وقال بلهجة حانية في محاولة منه لكتم غضبه :

- لقد بالغت في الأمر ، لا يمكن قطع المياه بشكل نهائي عن المدينة ، فربما كان هناك من هو بحاجة إليها ، تخيل مستشفى بلا ماء ، أو حريقا لم يتمكن أحد من إطفائه بسبب انقطاع الماء ، تخيل كيف يمكن طهو الطعام بلا ماء ، أو تنظيف المراحيض ، التي ستنشر الأمراض بعد أنْ تتراكم بداخلها القاذورات .

قلت بأسى :

- أتخيل كل ذلك يوميا ، وهذا ما دفعني لقطع المياه .

- هناك طرقا أخرى للتعبير عن موقفك .. وإيذاء الآخرين ليس أحدها حتما .

قلتُ بحدة :

- أعرف ، لكننا لم نجد وسيلة أخرى لجذب انتباه الناس

رد والدي :

– هذا لايبرر الخطأ الذي اقترفتموه ، الآن لن يستمع إليكم أحد لأنكم أثرتم استياءهم لا فضولهم .

ساد الصمت الجميع ، كان الأستاذ سلمان أشدنا قلقا ، فهو المسئول عن تلك المشكلة ، وقد يتهم بالإهمال والتقصير بسببنا ، لقد شعرنا في قرارتنا بتأنيب الضمير ، ولم نعرف ان أمورا مماثلة لا يمكن العبث بها لما تتسبب به من مشكلات جمة .

انتظر الجميع أنْ تهدأ عاصفة الإعلام التي كانت تحتشد خارج المبنى ، لكن بلا فائدة ، فالصحافة والإذاعة والتلفاز ينتظرون نصيبهم من الخبر ، وقد حصلتْ بعض الصحف على لقطات سريعة لنا عندما كنا خارج المبنى ، مما دفع بالإعلام والتلفاز أنْ يحشد مراسليه للحصول أي تعليق حول علاقة الأطفال بانقطاع المياه في المدينة ، لقد انحرف مسار الخطة وتحولنا من أبطال للماء إلى مشاغبين ومخربين .

قال سلمان :

– وجود الإعلام سيصعب علينا التغاضي عن العقوبات المحددة في حالات مماثلة ، لقد خرج الأمر من بين أيدينا ، إنهم الآن يواجهون القانون .

24

القانون على الجميع

حضر المدير العام للمحطة ، وهو يتميز من الغيظ ، وبدا عليه الانزعاج الشديد ، لدرجة أنّه ألغى سفرة هامة لحضور مؤتمره السنوي .

ومع المدير كان ضابط الشرطة ينتظر دوره للبت في تلك المشكلة ، قال المدير وهو يحاول تمالك أعصابه :

- من منكم يمكنه إخباري عن المتسبب في كل ذلك .

نهض باسل بكل حزم وهو ينظر إلى الأستاذ سلمان الذي كان يتصبب عرقا :

- نحن ، خمسة طلاب في الصف العاشر يحاولون بإصرار أنْ يلفتوا نظر العالم إلى أزمة الماء .

قال المدير مستغربا :

- أزمة ماء ، لكننا لا نعاني من مشكلات ، المحطة تعمل بكفاءة .

قال خالد بحزم :

- الماء ينضب ، وخلال الخمسين سنة القادمة لن يتبقى ماء صالح للشرب ، إن بقي الناس على تلك العادة في الهدر والإسراف .

صمت المدير برهة وهو يقلب نظره في عيون الحضور ، ثم ضحك بصوت مرتفع وأخذ يقهقه بينما الجميع ينظرون إليه بذهول بسبب تصرفه الغريب ، ثم قال :

- حقيقة أسعدني أن زر الطوارئ يعمل بفاعلية ، فبالرغم من أنّه مدرج في أنظمتنا ، إلا أننا لم نقم بتجربته أبدا ، وقد كنت أتساءل دائما عن كفاءته .

تساءل الجميع بنظرات حائرة عن معنى ذلك ، بينما قال ضابط الشرطة بهدوء :

- هل تعني أنه مجرد اختبار للطوارئ .

ابتسم المدير وقال :

- إنه كذلك ، وقد تبين لنا أنها تجربة ناجحة ، ونشكر كل من ساهم فيها .

تنهد الضابط باستياء ثم قال :

- إذا ، لا أرى أيّ فائدة ترجى من بقائنا ، كان يتوجب عليكم إعلامنا بتلك الخطوة مسبقا .

-نعم نعم ، لقد أغفلنا ذلك ، ونعتذر لإضاعة وقتكم وجهدكم ، يمكنكم الانصراف وشكرا لكم .

خرج ضابط الشرطة مع فريقه بينما عاد المدير يحدق بنا واحدا تلو الآخر ، أما الأستاذ سلمان فقد كان يتنفس الصعداء ، غير مصدق أنه نجا من ذلك المأزق الخطير الذي وقع فيه بسبب بعض الأطفال المشاغبين .

قال مدير المحطة لي ولزملائي :

-"لقد تعمدتُ إخراج الجميع ، حتى لا يقع أحد في مشكلات قانونية ، لكنني لم أكذب ، نحن حقا لم نجرب من قبل فاعلية (زر الطوارئ) .

أكمل قائلا :

- وبالرغم من خطورة المشكلة ، فقد وجدتُ أنكم لم تتعمدوا التخريب أو الإفساد ، لقد كانت نواياكم حسنة ، لكن العمل الذي قمتم به يا أطفال ليس صائبا ، هناك طرق أخرى لإرشاد الناس وتوجيههم .

قالت نواران التي كانت تبكي من الخوف :

- إنه الحل الوحيد ، لقد كان الناس يقذفون بالمنشورات التي نعطيها لهم في القمامة ، لا أحد يرغب في المساهمة في الحفاظ على الماء لأنه متوفر أمامهم ، ولن يشعروا بقيمته حتى يفقدوه .

قال مدير المحطة :

-ربما أنت على حق ، فمعدل استهلاك الفرد من المياه في المدينة يعد مرتفعا ويصل إلى(500) لتر في اليوم وهو ما يساوي ثلاثين صندوق مياه للشرب تقريبا ، وهي كمية كبيرة تعادل ما يستهلكه مئة شخص يوميا في قرية صغيرة ، لكننا نسعى إلى تقنين

استهلاك المياه ، فنحن مثلكم نعرف بوجود تلك المشكلة ، ونحاول تجنيب المدينة قطعا مماثلا يوما ما ، لكن القطع الذي سيحدث حينها لا يمكن إصلاحه بزر طوارئ .

قال والدي :

- لكنكم لا تعرفون أنّ المزارع في الريف جفت وماتت بسبب الضخ الزائد لمياه الآبار من الريف إلى المدن

قال المدير وهو يهزّ رأسه دلالة على الإيجاب :

- تلك مشكلة أخرى حدثت ، ولم نتوقع حدوثها ، إننا نعاني من تبعاتها الآن ، لكننا لم نجد بديلا آخر للمياه .

قال والدي بحزم :

- الحل يكمن في توفير الماء ، ولن يكون ذلك إلا بتعاون الجميع ، فلو وفر الناس مقدار 1% من استهلاكهم الحالي للمياه ، لاستطاعوا توفير 70 مليون درهم في السنة ، وهو مبلغ ضخم ، كما أنّ الريف لن يعاني من الجفاف ، وستعود المزارع إلى إنتاج الفواكه والخضار التي أصبحت المدينة تستوردها من الخارج ، وتبيعها بأثمان باهظة جدا .

قال مدير المحطة مؤيدا :

- نعم معك حق ، لقد أصبحت الحياة في المدن لا تطاق ، كل شيء أصبح باهظا ، المياه ، الكهرباء ، الطعام ، وكل ذلك بسبب أزمة المياه والطاقة ، لكن الناس لا يزدادون إلا هدرا ، فلا أحد مستعد لتغيير عاداته في مقابل توفير الماء ، وهو ما يشكل حلقة مفرغة لا تنتهي .

قلنا بصوت واحد :

- قطع الماء هو الحل .

قال مدير المحطة مبتسما :

- قطع الماء هو حل مؤقت لن يحرك سوى سخط الناس عليكم ، حتى تغيروا عاداتهم الحالية عليكم أنْ تغيروا قناعاتهم ، وذلك لن يكون في لحظة أو ساعات إنه أمر قد يستغرق سنوات طويلة من العمل .

صمت الجميع برهة ، بينما مدير المحطة يفرك يديه بقلق ، ثم قال :

-لنتجه الآن لتسخير الإعلام بأنواعه لخدمة قضيتنا ، ولتوجيه الناس وترشيدهم للطريقة المثلى للاستهلاك ، لذا أرى أنه من الجيد تسليط الأضواء على الأطفال الذين يحتجون على ممارسات الكبار تجاه هدر الماء ، باستغلال الإعلام الذي ينتظر في الخارج .

ثم أشار بيديه ففتحت الأبواب ودخلت أفواج الإعلاميين التي كانت تنتظر في الخارج لتغطية الحدث الذي ضجت به المدينة ، وخلال أربع ساعات متواصلة كان الإعلاميون يسألون الأطفال و الأهل عن المشكلة ، ويجرون اللقاءات الفردية معنا ، ومع مدير المحطة ، حتى شعرنا بالتعب والجوع ، وخرجنا محمولين على أكتاف آبائنا ونحن نغط في نوم عميق من أثر التعب والإرهاق الذي انتابنا طوال اليوم .

في المساء كانت الصحف تنشر خبر الأطفال الذين يرفضون ممارسات الكبار والصغار تجاه استنزاف الماء ، وأمام تساؤل الجميع عن الفوضى التي نشبت في المدينة بسبب قطع المياه بشكل غامض ، جلس الملايين يتابعون الأخبار على شاشات التلفاز التي كانت تنقل بثا حيا تناولت فيه المشكلة وأسبابها ودور الأطفال ودوافعهم ، تجاه أزمة المياه العالمية .

لقد كان الكثير من الناس يجهلون وجود أزمة مائية حقيقية ، بل إنهم لا يدركون أن في العالم من يموت بسبب عدم توفر المياه النظيفة .

لقد تركتْ تلك الحادثة في نفوس الكثيرين أثرا أحدث تغييرا عميقا في طريقة استهلاكهم للمياه ، بل إنّ تلك المشكلة التي تعاطف معها الملايين من سكان المدينة دفعت الشركات التجارية المصنعة للأدوات المنزلية إلى ابتكار أدوات و أجهزة صديقة للبيئة توفر المياه .

واحتلتْ إعلانات تلك الشركات المنتجة أغلفة الصحف الأولى بسبب الطلب الكبير على منتجاتها ، صار الناس الآن أكثر وعيا فقد أسس الكثير من الناشطين لحماية البيئة مواقع حول مشكلة المياه على شبكة الانترنت تعرض فيها آخر الدراسات والأبحاث والنتائج ، وتعلم الناس طرقا مبتكرة لتوفير المياه .

أما المتاجر الكبرى فقد افتتحت أقساما خضراء تخصصت في بيع المنتجات التي تساعد في تقنين استهلاك المياه ، كالصنبور الذكي ، والحجر الذي يوضع في خزان المرحاض ، وكاشف التسرب ، وكلها تحمل أفكار بسيطة وغير مكلفة ، بل إنها توفر على السكان فاتورة المياه التي كانت تثقل كواهلهم .

لقد عرضتْ علينا العديد من محطات التلفاز تقديم برامج للأطفال حول ترشيد استهلاك المياه ، وقد حققت تلك البرامج التي كانت تدعمها الشركات المنتجة للمعدات المنزلية الخضراء أهدافها بنجاح ، ربما هي مسألة تجارة بالدرجة الأولى بالنسبة لهذه الشركات ، لكن تلك التجارة لن تنمو إلا مع تبدّل قناعات الناس وتغير حاجاتهم ، عندها تعمل تلك الشركات على توفير مطالبهم وهو ما كان يخدم قضية استهلاك المياه ، التي نسعى لحلها .

لقد ابتكرتْ إحدى القنوات الفضائية شخصية (قطور و قطورة) التي أحبها الأطفال لتنشر ثقافة ترشيد المياه ، حتى بات الأطفال يغلقون صنابير المياه التي كانوا يتركونها مفتوحة أثناء تفريش أسنانهم ، وتوقف الكثيرين عن مليء حوض الاستحمام بالمياه والاكتفاء بالاستحمام السريع ، كما استبدلت الكثير من ربات البيوت الغسالات القديمة بنظامها الذي يستنزف المياه إلى غسالات توفر الماء من خلال تقنيات حديثة ظهرت مع حاجة الناس لمثل تلك التقنيات الموفرة للمياه .

أما أفضل ابتكار للحفاظ على الماء ، فقد كان عبارة عن مؤشر ذكي يوضع في خزان المياه ، ويقوم بإرسال رسائل تقريرية إلى جهاز استقبال يوضع داخل المنزل حول معدل استهلاك المياه خلال اليوم ، مما يسمح للمستهلكين بمراجعة أنفسهم وتعديل كميات الماء التي يستخدمونها .

كان هذا الاختراع من ابتكار صديقي (باسل) الذي وظف العقل الآلي في خدمة الماء، وتمكن بسببه من الفوز في مسابقة الإبتكار العلمية العالمية في أبوظبي .

كان بالإمكان توفير كميات هائلة من المياه ، من خلال توجيه الناس وتثقيفهم ، فالعادات التي ظهرت بسبب حياة المدن التي تعتمد على الرفاهية والراحة لدرجة تجعل الفرد يغسل كوبا أو ملعقة في غسالة الصحون التي تستهلك كميات كبيرة من المياه بدل غسلها في دلو به بعض الماء ، يمكن استبدالها بعادات أفضل إذا أشركنا الجميع في قضيتنا ، واعتبرنا أنها مشكلة جماعية لا مشكلة فردية ، لكل فرد دور في حلها أو تفاقمها .

ربما تحتاج العادات الدائمة إلى وقت لتتغير ،. لكنها مسألة وقت حتى تتحول تلك العادات السيئة تجاه المياه إلى عادات إيجابية ، و تسهم في تفادي أزمة مائية مرتقبة ، قد تفجر حربا عالمية خفية ، تدور حول احتكار المياه .

25

الأرض تتعافى

بعد عودتي من المدرسة وجدت الشقة فارغة إلا من صندوق صغير موضوع على المنضدة .

توجهتُ نحوه وأنا أتلفتُ باحثا عن والديّ لكنني لم أجد أحدا منهما ، فتحتُ الصندوق فوجدتُ مفاجأة تنتظرني هناك :

- مفتاح منزلنا القديم .

دخل والدي وهو ينفض الغبار عن ملابسه ثم قال :

- هل أنت مستعد ؟

قلتُ بحماس وعيناي تذرفان الدموع :

- سنعود إلى أرضنا ، ستحضر لي كلبا وسأربي النعاج الصغيرة ، كم اشتقت لكل ذلك .

قال والدي وهو يضمني بحنان :

- أنت من سيفتح لنا الباب ، لقد كان لك دور كبير في عودتنا ثانية ، أنت بطل يامروان ..

نادت علينا والدتي بحماس وهي تنزل على السلالم الكثيرة للمرة الأولى متجاهلة انشغال المصعد ، وتاركة وراءها كل ذكريات المدينة السعيدة .

رغم سعادتي بالعودة إلى المزرعة في الريف ، إلا أنني كنت حزينا لتركي أصدقائي ومدرستي ، إنها مشاعر متضاربة لا تعرف المتسبب بها ، رحيلنا من الريف أم رحيلنا إلى الريف .

أيقظني والدي عندما وصلنا ، كان باب منزلنا القديم لايزال كما هو ، باستثناء آثار الزمن التي ظهرت عليه بشكل جلي .

أخرجتُ المفتاح من الصندوق وتوجهت إلى المدخل بينما والدي ووالدتي وأختي يتبعانني ،

وضعتُ المفتاح في ثقب الباب ثم توقفتْ ، قال والدي :

- ألا تريد الدخول ؟!

- بلى ، لكنني خائف .

ردت والدتي :

- مما يابني ؟

- لقد اشتقت لأصدقائي في المدينة من الآن ، هل أثرت علينا تلك الفترة التي قضيناها في المدينة .

تقدمت أختي ثم قالت :

- أنا كذلك ، أشعر أنني فقدتُ جزءا مني هناك .

قال والدي :

- يمكننا العودة إن لم تكونا راغبين في العيش هنا ثانية

قلتُ مذعورا :

- لا ، لكنني لا أعرف سبب هذا الحزن في داخلي .

قالت والدتي :

- إنه أمر طبيعي ، يحدث للجميع ، لكنك في النهاية ستختار مكانا واحدا لتعيش فيه ، اسمح لقلبك بأن يختار ، حتما لن يخذلك .

أدرتُ القفل وفتحتُ الباب ، كان قلبي يقرع بقوة ، لكنني كنتُ واثقا من هذا الخيار ، تطاير بعض الغبار على عيني ، فأغلقتهما في الحال وأخذت أفركهما بشدة ، صاحت أختي بسعادة وهي تطأ بقدمها المنزل ، ثم فتحتُ عيني ، كان مشهدا مذهلا .. إنه حقا شيء لم أتوقع حدوثه .

قلتُ لوالدي :

- إنه ليس منزلنا ..

ردّ قائلا :

- لكنها أرضنا .. ويمكننا أن نفعل بها ما نشاء .

لقد بنى والدي مجتمعا أخضر في مزرعته ، حيث بنيت ثلاثة مرافق ضخمة بتصاميم حديثة تعمل جميعها بالطاقة الشمسية ، قال والدي :

- هذا منزلنا الجديد ، لقد جلبنا تقنيات المدينة المستدامة معنا إلى الريف ، نحن أولى بها هنا ، من الآن لن يكون هناك هدر للطاقة أو للمياه أو المهملات ، كل شيء سيتم إعادة تدويره ، وسنعيش كمجتمع أخضر صغير مستدام .

قالت والدتي :

- ليس هذا فقط ، لدينا مختبر متكامل سيعمل فيه والدك على إكمال أبحاثه المتعلقة بالماء والهواء والتربة وسيرسل تلك المعلومات مباشرة إلى المدينة ليتخذوا من خلالها القرارات البيئية المناسبة .

سألت أختي :

- هناك مبناً ثالث ، ماهو ؟

قال والدي :

- عليكما أن تكتشفا ذلك بأنفسكما .

كان المبنى الأخير مختلفا قليلا ، إنه أقربُ لمنزل صيفي منه إلى منشأة أو مختبر . جريتُ مع أختي لتفقد المبنى الأخير ، وقفتُ أمام الباب ، ثم دفعته بحذر ، عندها سمعت صراخا وضجيجا قادما من الداخل .

هتفتُ بسعادة :

- يا إلاهي ، إنهم جميع أصدقائنا .. ومعلمتي أيضا ..

تحلق الجميع حولنا والسعادة تغمرهم ، بينما أخذتُ أحتضنهم الواحد تلو الآخر ، قال والدي :

- هذا معسكر صيفي لأبناء المدينة ، يمكن للجميع قضاء الصيف فيه ، إنه مجهز

لاستقبال عدد كبير من العائلات ، وستشرف عليه والدتك حيث سيتعلم الجميع الزراعة وتربية الحيوانات في المزرعة .

قلتُ بسعادة :

- إنها مفاجأة رائعة يا أبي ، الآن يمكننا أن نركز على تطوير المزرعة دون القلق من فقدان أصدقائنا وأحبتنا .. لأنهم يعودون إلينا كل عام ، ومعهم المزيد من الأصدقاء الجدد من المدينة .

دخلتُ وسط بهو كبير فرأيتُ لوحةً كبيرة معلقة على مدخلها مكتوب عليها بخط ذهبي جميل :

(أعطوني زراعة ، أضمن لكم حضارة)

قلتُ لوالدي بحماس شديد :

- إنها مقولة والدنا الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، رحمه الله .

رد أبي بفخر :

- نعم يابني ، إنه مؤسس هذه الدولة ، وباني الاتحاد ، لقد أحب الأرض والزراعة ، إنه قدوتنا ، وحكيمنا ومنه تعلمنا أنّ الأرض جزء منا ولا يمكننا الانفصال عنها مهما بنينا من مدن إسمنتية .

لايمكننا أن ننسى فضل والدنا الشيخ زايد ، فقد غرز بداخلنا حب هذه الأرض والتمسك بها ، والاهتمام بزراعتها لأنه كان يؤمن أنّ الزراعة هي أساس الحياة ، ومن الزراعة تنهض الحضارات وتنمو وتزدهر ، لذا كان لزاما لنا ، أن نكيف التقنيات الحديثة والتقدم الحضاري لخدمة أرضنا ، لا لاستنزاف مواردها وتلويث هوائها وتربتها ، وهو ما نسميه اليوم بـ (المدن المستدامة) كانت تلك نبؤة رجل حكيم ، وتحولت إلى واقع عظيم ، لأننا قررنا أن نحافظ على الماء والهواء والأرض لنبقى على أرضنا قرونا قادمة .

تمت